AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
3 1 JAN 1970
Tel. 260458

297.04
S53mA
c.1

أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

# محاضرات الثلاثاء

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

لله الحمد ، وللإسلام المجد ، وللرسول من ربه الصلاة والسلام

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

# مقدمة

هذه مجموعة من « محاضرات الثلاثاء » التى ألقيتها خلال سنتى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ م بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ، بعد أن تفضل رئيسها العام حضرة صاحب المعالى اللواء محمد صالح حرب باشا فدعانى إلى إلقائها ، ثم أبدى معاليه حرصه على نشرها ، وعمل لذلك مشكورا ؛ وما دامت هذه المحاضرات نتيجة لدعوته وعنايته ، فلا عجب إذا صارت اليوم لسان صاحبها فى شكره وتحيته .

وهذه المجموعة تضم بحوثا تدور حول القرآن الكريم ، وما يشتمل عليه من فنون الأغراض والدقائق ، وحول الإسلام وموقفه من الملل والمذاهب الأخرى ، وحول طرق الإصلاح ودراسة المصلحين ؛ إلى أمور أخرى ذوات بال لدى كلّ مشتغل بأمور الإسلام والعروبة .

وقد يكون فى هذه الأفكار والآراء ما تحدثت عنه قبل « محاضرات الثلاثاء » أو بعدها ، ولكنها انتظمت هنا سلسلة متتابعة طالما حرضنى مستمعوها ومن سمعوا بها — وقد أحسنوا فيها الظن — أن أجعلها فى كتاب يسير ويبقى ، حتى هيأ الله لى أسباب التوفيق ، فحققت هذا الأمل ، راجيا أن ينال رضا الله وثوابه ، قبل أن ينال ثناء القارىء وإعجابه .

ولعل هذه المجموعة يردفها أخوات لها ، والله وحده هو المستعان ؛ منه نستمد الحول ، وبه تكون القوة .

ولعل حسن التقبل ، مع خالص النقد ، مع صادق التمحيص ، يكون خير معوان لصاحب المجهود المحدود على أن يضاعفه ويسير فيه ...

« القاهرة »

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

أى ذو فطنة وذكاء ، وفى حديث أم حكيم : إنى حَصان فما أكلم وثقاف فما أُعلم . والثِّقاف حديدة تكون مع القواس والرمَّاح يقوِّم بها الشىء المعوج ، والتثقيف تسوية الرماح » .

وفى أساس البلاغة للزمخشرى : « ثقَّفَ القناة ؛ وطلبناه فثقفناه فى مكان كذا أى أدركناه ، وثقفت العلمَ أو الصناعة فى أوحى مدة إذا أسرعت أخذه ، وثاقفه مثاقفة لاعبه بالسلاح ، وهى محاولة إصابة الغرة فى المسابقة ونحوها ، ولقد تثاقفوا فكان فلان أثقفهم ، ومن المجاز : أدبه وثقفه ، ولولا تثقيفك وتوقيفك ما كنت شيئاً ، وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك ؟ » .

وفى القاموس المحيط للفيروزابادى : « خل ثقيف وثقَّيف ( كحريف ) حامض جداً ، وثقفه كسمعه صادفه ، أو أخذه ، أو ظفر به ، أو أدركه ، وامرأة ثقاف كسحاب فطنة ، والثقاف كالكتاب الخصام والجلاد ، وما تسوى به الرماح ، وثقفه تثقيفاً سوَّاه ، وثاقفه فثقَفه غالبه فغلبه فى الحذق » .

وفى النهاية لابن الأثير : « . . . ورجل ثِقف وثقُف وثقْف والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه . . . وفى حديث عائشة تصف أباها رضى الله عنهما : وأقام أوده بثقافه . الثقاف ما تقوَّم به الرماح . تريد أنه سوى عوج المسلمين . . . » .

ونرى من هذه النصوص أن المعنى اللغوى العام لكلمة « ثقافة » هو الحذق والفهم والذكاء والإدراك والتقويم ، ومن هنا جاء معنى الثقافة العلمى أو العرفى ، وهو أن يكون للانسان ملكة ومدركات ، يستطيع أن يشارك بها فى أمور العلم والمعرفة ، فلا يقصر فى الفهم أو الإدراك ، وبتعبير آخر أن يأخذ من كل فن بطرف ، كما يقول ابن قتيبة ، لتتجمع لديه من هذه الأطراف جملة معارف يكون بها لبقاً ذكياً متعلماً يحسن التدبير .

## شهادات للقرآن

والقرآن الكريم هو خير كتاب يهيىء للمرء أصول الثقافة ، وييسر أمامه مناهلها ، وذلك بشهادة الحق تبارك وتعالى الذى يقول فى حقه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور

بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ويقول : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . ويقول : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

* * *

والقرآن كتاب الثقافة بشهادة الصادق المصدوق محمد صلوات الله عليه الذى يقول : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . ويقول : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » . ويروى عنه أنه قال : « كتاب الله تعالى فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ؛ هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ؛ من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

* * *

والقرآن كتاب الثقافة العامة بشهادة الأجانب غير المسلمين ، فهذا هو المستشرق الفرنسى الدكتور « موريس » يقول : « إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية لبنى البشر ، فهو بمثابة ندوة للعلماء ، ومعجم لغة للغويين ، ونحو لمن أراد تقويم لسانه ؛ وإن القرآن دائرة معارف عامة للشرائع والقوانين ، وإن القارىء ليسجد لعجائبه التى تتجدد ، وأسراره التى لا تنفد ؛ ويعده المسلمون ذخرهم الباقى إلى منتهى الأزمان » .

* * *

بل القرآن الكريم يدل على جمع العلم والثقافة بلفظه ، فلفظة « القرآن » مشتقة من القرء بمعنى الجمع ؛ قال ابن الأثير : « تكرر فى الحديث ذكر القراءة والاقتراء والقارىء والقرآن ، والأصل فى هذه اللفظة الجمع ، وكل شىء جمعته فقد قرأته ، وسُمى القرآن قرآنا لأنه جمع القصص ، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والآيات والسور بعضها إلى بعض »[1] .

---

(١) وقيل إنه مشتق من القرائن ، لان الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ، فكل منها قرينة مؤيدة ومزكية لأختها ، وقيل غير ذلك .

## القرآن يفرض الثقافة

والقرآن الكريم هو أول من فرض الثقافة العامة ، وجعلها شائعة مجانية لكل راغب ، لا نصد عنها فقيراً ولا صغيراً ؛ والدليل على ذلك أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كان ذات يوم مشغولا بمحادثة صناديد المشركين ، يثقفهم بثقافة ربه ليهديهم إلى دينه ، وجاءه أثناء ذلك رجل ضرير فقير هو عمرو بن أم مكتوم ، يطلب زاده من الثقافة ، وأمهله الرسول حتى ينتهى من محادثة هؤلاء الكبار ، فغضب الله لذلك الضرير الفقير الطالب للعلم ، وأنزل فى شأنه قرآنا يهدى إلى عدم التفرقة فى التعليم بين الغنى والفقير ، أو بين الكبير والصغير ، فقال تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة » ! .

ومما يتلاءم مع هذا الهدف العظيم أن القرآن الكريم تتخلل روضاته إشارات كثيرة إلى العلم ، والحث عليه والرفع من قدره ، واختصاص المصطفين من الأنبياء والأولياء والأتقياء بنعمته ؛ حتى لقد ذُكرت مادة « العلم » بما تصرف منها مئات المرات فى القرآن الكريم ؛ ولعله من الخير أن نثبت هنا طائفة من الآيات التى ورد فيها ذكر العلم ، وسندعها بلا تعليق :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ». « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » . « وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » . « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » . « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان» . « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما» . « فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » . « قال موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت منه رُشداً » . « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » . « إن فى ذلك لآيات للعالمين » . « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » . « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » . « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » . « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » . « قال الذين أوتوا

العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين » . « يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً » . . .

أرأيت هذه الطائفة الكريمة من الآيات ؟ . . . ستقول إنها كثيرة ، ولكن وراءها ما هو أكثر ، فعليك بالمصحف لترى الفيض الأكبر ! . . .

والقرآن كتاب إلهى سماوى تنزل على نبى أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وبين قوم تغلب عليهم الأمية ، وهم أيضاً لا يقرأون ولا يكتبون ، ومن عرف الكتابة منهم أشير إليه بالبنان كأنه فارس ميدان ، ومع ذلك طالبَ القرآن الكريم أولئك الأميين بأن يغترفوا من أنهار العلم وينابيع المعرفة بأوسع المكاييل ، وأن ينفسح أفقهم الثقافى إلى أوسع مدى ، وأن يتم ذلك فى أقصر مدة وأسرع وقت ، حتى يتركوا رعاية الإبل والغنم إلى تربية الشعوب والأمم ، فكأنه خلق منهم أبطال الثقافة وأعلام المعرفة بصورة عاجلة عجيبة ، بعد أن كافح فيهم أميتهم الموروثة الفاشية فوأدها وعفى عليها ، ولم يأخذهم بمنهاج المدرسة الطويل الممل ، الذى يقابل مراحل النمو فى الإنسان بقشور خفيفة من المعلومات ، بل زحمهم — وهم رجال قادرون — بزاد خصب قوى جليل ؛ وذلك كالمدرس الذى يحاول تخريج طالبه الكبير السن المستوى الأسباب فى أقصر وقت ، فتراه يلقى على كاهله كثيراً من الواجبات والأعمال ، والطالب لا ينوء بها ولا يتقاعس عنها ، بل يرضاها ويستزيد منها ، فيحصّل فى شهور مالا يحصله غيره فى ظل المنهج الرتيب فى سنوات . .

ومن هنا رأينا الأمة العربية ، التى جاءها رسولها وهى أمة جاهلة جاهلية ، لم يمض عليها وهى فى ظلال القرآن إلا سنوات معدودات هى فى تاريخ الأمة كأيام فى حياة الفرد حتى أصبحت أمة مثقفة عالمة مهذبة بشكل أدهش العقول وحير الألباب ! . . .

ومن عجب معجب أن الله قد فرض على المسلم تلاوة القرآن فى عبادته اليومية الدائمة ومناجاته المتكررة ، فكأنه فرض عليه دوام المطالعة والتدبر فى كتاب الثقافة الكامل ، وإحياء العلم مذاكرته كما يقولون ، فكيف إذا كانت هذه المذاكرة مستمرة بلا انقطاع ، ومزكّاة بالعنصر الدينى الذى يعطيها قداسة وجلالة فى قلب العابد وعقله : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » ! .

ولقد ظل القرآن الكريم فترة طويلة فى عهد السلف وهو مصدر ثقافة المسلمين ، وعمدتهم فى المعرفة ؛ ومع ذلك خرّجهم علماء فقهاء حكماء ؛ دون أن تكون هناك مصادر ثقافية أخرى لها أهميتها ؛ اللهم إلا روافد ضئيلة لا تتسامى بهاماتها

إلى ذلك المرتقى ؛ لأننا لا نستطيع الادعاء بأن الأمة القرآنية كانت معدومة الصلات بسواها من الجماعات ؛ ولا أن زادها الثقافى كان مقطوع الأسباب بسائر الأبواب .

ولذلك نجد عند مراجعة العوامل التى أدت إلى نشأة العلوم الإسلامية والعربية أن هذه العلوم نشأت فى الغالب بسبب القرآن ، ولخدمة القرآن ، ومن القرآن أيضا ... « فاللغة » قد وضعها المسلمون وعُنوا بأسفارها ليفهموا عن طريقها معانى القرآن ، «والنحو» قد وضعوه ليتجنبوا بالتزام قواعده اللحن فى القرآن ، «والتفسير» قد نشأ ليعدد وجوه الإعجاز والتشريع فى القرآن ، و«الحديث» قد صار علما ليحفظ سنة الرسول التى تعتبر مذكرة تفسيرية للقرآن ، و«الفقه» نشأ ليستمد الأحكام أولا وقبل كل شىء من القرآن .

وتستطيع أن تتابع استعراض البقية من هذه العلوم لتعرف عند التدبر أن القرآن كان دافعا إلى وجودها ، وكان مدداً وسندا لأهلها ؛ وهذه العلوم هى مجموعة المعارف التى تتكون منها ثقافة الأمة ، فكأن القرآن الكريم كان الينبوع الذى تفجرت عنه مباشرة أو بطريق غير مباشر هذه المعارف .

## أركان الثقافة

الثقافة كما عرفنا عدة نهيرات وروافد تتلاقى ، فتتعاون على تهذيب ثلاث نواح أساسية وهامة فى الإنسان ، وهى العقل ، والنفس ، والبدن ؛ ولا تكون الثقافة كاملة ومثمرة إلا إذا أعطت كل ناحية منها قسطها من العناية والرعاية ... والقرآن الكريم قد اهتم — لأنه كتاب الثقافة العامة السامية — بهذه النواحى كلها ، فى طريقة محكمة هى طريقة الخلاق العليم . . .

أما ثقافة العقل فى القرآن الكريم فحسبنا منه عناية بها وتوجيها إليها وحثا عليها أنه قد أكثر من التعبير بقوله : « أفلا تعقلون » ، « إن كنتم تعقلون » فى مواطن تشعر بقيمة العقل الرفيعة فى نظر القرآن ؛ وهو يجعل غير العاقلين كالمحرومين من السمع والنطق والنظر ، ولذلك يقول عن المجرمين : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » ! ويصرح بأن العقلاء هم الذين يستطيعون أن يفهموا الآيات والأمثال فيقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

وهو قد ركز تثقيف العقل فى حديثه عن أمور كثيرة توسع أفقه ، وتضاعف معلوماته ، منها :

(ا) الطبيعة : كحديثه المستفيض كالشمس والقمر ، والليل والنهار ؛ والماء والهواء ؛ والنبات والجماد ؛ والحيوانات والحشرات ؛ وطبقات الأرض وأجواز الفضاء ..

(ب) التاريخ وتجارب الأمم : كحديثه عن قصص الأنبياء والمرسلين ، وقصص الأمم القديمة كعاد وثمود ومدين وبنى إسرائيل .

(ج) التشريع والقانون : كالحديث عن المداينة والمراهنة والتجارة وتحريم الربا ؛ وعن حدود الزنا والسرقة والقذف وقطع الطريق ؛ وعن القصاص والدية ؛ وعن الزواج والطلاق والوصية والميراث ؛ وعن قوانين الحرب والسلام والجزية والمعاهدات .

(د) ما وراء الطبيعة : كالحديث عن خلق الإنسان وخصائص الملائكة والجن والشياطين . والحديث عن جنود ربك التى لا يعلمها إلا هو .

وأما ثقافة النفس : والمراد بها تهيئتها لحالة من السمو الخلقى تجعلها خليقة بخلافة الله فى الأرض ؛ فقد جلاها القرآن بحديثه عن الأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء والبر والعدل والاستقامة والإحسان ، وبإيراده للقصص القرآنية على وجه يؤثر أيضاً فى تهذيب النفوس ، بما يتبدى خلالها من ضرب العظات والعبر ، وبتذكيره المستمر بأن النفس إذا تطهرت وزكت نجت ، وإذا تدنست وتدلت خسرت : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » ، « قد أفلح من تزكى » ، « فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » .

وأما ثقافة البدن : بمعنى حفظه معافى سليما معتدلا ، لا يضعف ولا يطغى ، فقد جلاها القرآن فى عدة أمور ؛ منها دعوته إلى حفظ البدن من آفات الخمر والزنا ولحم الخنزير والميتة والدم ؛ ومنها التوصية بأخذ الحظ المادى من الدنيا : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وللجسم فى هذا النصيب بلاشك حظ كبير ؛ ومنها التوصية بالتوسط والاعتدال وهما سر الصحة والعافية : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » مع تحذيره من الترف المهلك المبيد ؛ ومنها تشريعه للفروض المفيدة للصحة المقوية لها كالوضوء والصلاة والصوم والحج ؛ كما أنه قال : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . وهذا إيجاز ينطوى على إعجاز ! . . .

# العلوم فى القرآن

القرآن الكريم كتاب أحاط بكل شىء تحتاج إليه جماعته وأمته ، وصدق الحق إذ يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . . . ولكنه أيضاً كتاب أذكياء ألباء ، تغنيهم الإشارة عن العبارة ، والرمز عن التفصيل ، و التلميح عن التصريح ، وعلى هذه القاعدة تستطيع أن تقول إن القرآن قد دعا إلى العناية بالعربية لأنه يقول : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » ؛ ودعا إلى العناية بالبلاغة والبيان لأنه يقول : « ألر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » ؛ ووجّه العناية إلى القصص لأنه يقول : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » ؛ ووجّه إلى العبر والأمثال ففيه : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل » ، ووجّه إلى الأخلاق ففيه : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » . ودعا إلى الحكمة ففيه : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . وفيه فصل الخلاف : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » . وفيه التذكير والإرشاد : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . وفيه الرشد والسداد : « قالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدى إلى الرشد . . . » .

والله سبحانه يقول كذلك : « ونزلنا عليه الكتاب تبياناً لكل شىء » وعلى قاعدته فى الإيجاز والرمز ، وقاعدتنا فى التنبه والاستخلاص ، نستطيع أن نستنتج شواهدالعلوم المعروفة من القرآن :

فنجد القانون فى قوله : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » . والتجارة فى قوله : «وأحل الله البيع وحرم الربا » . والكتابة والقراءة فى قوله : « ن ، والقلم وما يسطرون » ، « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . والأدب والبيان فى قوله : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » .

والنجارة فى قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . والغوص واستخراج المعادن فى قوله : « وتستخرجون منه حلية تلبسونها » . والملاحة : « وترى الفلك مواخر فيه » . والفلاحة : « أفرأيتم ما تحرثون » والاختراع : « علم الإنسان

ما لم يعلم » . والفلك : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » . والجندية والجيش : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وعلم الآثار : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وعلم النفس فى قوله : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . وعلم التاريخ : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » . وصناعة الفخار : « فأوقد لى يا هامان على الطين » . وصناعة الزجاج : « قال إنه صرح ممرد من قوارير » . وصناعة التجمل « خذوا زينتكم عند كل مسجد » .

إنها إشارات فيها إثارات لقوى وملكات فى الإنسان ، وفيها توجيه إلى نواحى النبوغ والإنتاج ، وعلى المرء أن يقوم بمهمة التطبيق والتبويب والتوسيع ، والقرآن هو الإمام . .

## الأسلوب الرفيع وغريب اللغة

يجمل بالمثقف الأديب أن يسمو تعبيره عن خطاب العامة ، وأن يزدان أسلوبه بما يجمله ، وهذا لا يتيسر له إلا إذا حصّل ثقافة لغوية كافية ، والقرآن الكريم فى هذه الناحية منبع فياض ، فأسلوبه رفيع منيع . ما أراد أديب أو كاتب أن يرفع من قدر نفسه إلا استمد من التعبير القرآنى نجوما يزين بها كلامه ، ومفردات القرآن فيها ثروة لغوية ضخمة كبيرة العدد واسعة المدد ، وحسبنا أن نسوق طائفة من هذه المفردات التى لو عرفها المثقف واستعملها وأدرك توابعها لعلا فى البيان درجات بعد درجات :

« فُومها ، جَنفا ، صَفوان ، نِحلة ، كلالة ، أركسهم ، شنآن ، متجانِف ، مدرارا ، قِنوان ، مذؤوما ، نتقنا الجبل ، فشرِّد بهم من خلفهم ، صنوان ، حمأ مسنون ، مواخر فيه ، لأحتنكن ، مثبوراً ، المهل ، الزقوم ، تؤزهم أزا ، جذاذاً ، حصب جهنم ، ثانى عطفه ، المعتر ، كالحون ، ولا يأتل ، الأكمه ، الحبأ ، يوزَعون ، منسأته ، خمط ، غساق ، قاصرات الطرف ، مقصورات فى الخيام ، رهوا ، غسلين ، عسعس ، الفلق . إلخ » .

# أدب الخطاب

المثقف رجل قد تهذب وتأدب ، ولا بد من أن يظهر أثر ثقافته فى خطابه ، فيكون رقيقاً مهذباً ، والقرآن الكريم خير من يضرب القدوة فى هذا المجال . فهو مثلا قد علم النبى صلوات الله عليه أن يقول لمخالفيه فى العقيدة . « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . وجاء فيه أيضاً على طريق التعريض : « فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

ومن أدب القرآن أنه لم يصرح باسم امرأة — لأن مقام احترامها وتوقيرها وتخديرها لا يناسبه عادة ذكر اسمها — ، بل قال : « قالت امرأة العزيز » وكان يستطيع أن يقول : زليخا . وقال : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط » وكان يستطيع ذكر اسميهما . وقال : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » وكان يستطيع ذكر اسمها . . وإنما ذكر القرآن أم عيسى باسمها فقال : « ومريم ابنة عمران » لأن الناس قد قالوا ما قالوا فى شأن عيسى ، فنسبوه إلى الله ، فرد الله عليهم زعمهم بتحديد أمه ؛ ولأن عيسى أيضاً لا أب له ينسب إليه ، فكان واجبا أن يقال : « عيسى بن مريم » .

وكذلك لم يصرح القرآن عن الجماع والوطء ، لأن هذا مما يستحى من التصريح بذكره غالباً ، ولذلك كنى القرآن عن الوطء بعدة كنايات ، فتارة يقول عنه : « أولامستم النساء » ، وتارة يقول : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ، وتارة يقول : « فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به » ، وتارة يقول : « ولكن لا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » ، وتارة يقول : « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » . فالملامسة والرفث والتغشى والمباشرة والدخول كنايات — ما ألطفها وما أخفها — عن الجماع .

وكذلك لم يصرح القرآن عن البول والبراز ، بل كنى عنهما بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » . والغائط هو المكان المطمئن الذى يقصد عادة عند العرب للتبول والتبرز . فاكتفى بذكره ليفيد ما يحدث فيه .

ومن كناياته الدقيقة عن الزنا قوله : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن

وأرجلهن » . . وهكذا شأنه . ما من مقام يحسن فيه التلميح إلا آثره فيه على التصريح وهو بذلك يعلمنا أدب الحديث ورقة الخطاب .

وقد يعترض معترض بأن القرآن قد قال : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ويقول إن القرآن قد صرح بكلمة « الفرج » وهي مما يحسن ستره والتكنية عنه ، فيجاب بأن المراد هنا بالفرج ليس عضو التناسل المعروف ، بل المراد به فرج قميصها ، أي موضع شقه الأعلى ، والتعبير على هذا من ألطف الكنايات وأحسنها . إذ المعنى أنها أحصنت قميصها ، فلا يعلق بثوبها ريبة فضلا عن عفتها ، فالعرب تقول : فلان طاهر الذيل أي طاهر الأخلاق ذو عفة ، ومما يقطع بهذا المعنى أنه لا يُتصور أن نفخ جبريل كان في فرجها — بمعنى عضوها المعروف — وإنما نفخ في جيب درعها وهو فتحة ثوبها ! . .

## الأمثال في القرآن

الأمثال ثروة عظيمة يزداد بها المثقف ثقافة ومعرفة ، فللأمثال تاريخها ومضاربها ، ولها مواردها ومواطن استعمالها . مما يعطي المعرفة سعة وانفساحا ، وفي القرآن الكريم من الأمثال فيض واسع يجمل بأبنائه أن يقدموه في حديثهم وكتابتهم على أمثال العامة أو الخاصة ، لأن تعبير الرحمن خير ألف مرة من تعبير الإنسان مهما كان ، وها نحن أولاء نسوق هنا طائفة من أمثالهم ، ومعها ما يقابلها من أمثال القرآن ، وسيعرف كل مميز مبلغ الفرق بين مثل القرآن ومثل سواه :

١ — خير الأمور الوسط : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » .

٢ — كما تدين تدان : « من يعمل سوءاً يجز به » .

٣ — من جهل شيئاً عاداه : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » .

٤ — ليس الخبر كالعيان : « أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

٥ — البركة في الحركة : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرا وسعة » .

٦ — القرد في عين أمه غزال : « كل حزب بما لديهم فرحون » .

٧ — لا تلد الحية إلا حية : « لا يلدوا إلا فاجراً كفارا » .

٨ — لأجل عين تكرم ألف عين : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .
٩ — عند الصفو يحدث الكدر : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » .
١٠ — الكافر مرزوق : « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » .
١١ — صاحب بالين مشغول : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » .
١٢ — انصح نفسك : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » .
١٣ — لكل قصة نهاية : « لكل نبأ مستقر » ... إلخ .

## القرآن أساس التعليم

أما بعد ؛ فهذا هو القرآن الذى جاء شاملا لروافد الثقافة العامة ؛ فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ وقد أعرضت الأمة عنه فى مناهج تعليمها وقواعد تهذيبها ؛ فكان هذا الإعراض سببا فى ضعف الملكة العربية ، والروح الدينية ، والنزعة الثقافية ؛ مع أن إدمان مطالعته تقويم للسان ، وتطهير للجنان ، وتثقيف للعقل .

ولست أدرى والله لماذا لا يجاهد المجاهدون من علماء الأمة وأبناء القرآن وأتباع محمد عليه السلام حتى يكون القرآن هو الأساس الأول لمناهج التعليم فى بلاد الإسلام ، وحتى يكون تدريس القرآن الكريم حفظاً وفهما أول مادة أساسية بين العلوم ؟ ...

لقد قام لنا الدليل والبرهان على أن الثقافة العامة مستوفاة فى القرآن على وجه العموم والإجمال ، لأن القرآن كتاب أهداف ومقاصد ، لا كتاب تفصيل وتحليل ، فما حجة الذين يقفون فى وجه القرآن الكريم ؟ ...

# الاسلام والشيوعية

## تحديد سريع

فى العالم الحديث اليوم قوى ثلاث ، أو كتل ثلاث ، منها اثنتان تتحكمان فى الأمور العالمية بنسب مختلفة ، وهما الديموقراطية ( وتمثل الرأسمالية ) والشيوعية ، والثالثة قوة تقف على الحياد قريباً أو بعيداً من هاتين القوتين ، وهى الكتلة الإسلامية.

والنظام الديموقراطى ( أو الرأسمالى ) يقوم على إعطاء الفرد الحرية فى العمل والإنتاج والتوزيع والمعاملة ، ويفتح أمامه باب الاقتصاد ، ويبيح له المزاحمة وترجيح المصلحة الشخصية ، وهذا يؤدى بطبيعة الحال إلى سيطرة القادرين ، وخضوع العاجزين ، أو الذين لم يتيسر لهم رأس مال ، ولا فرصة مناسبة لاستثمار رأس المال ، كما يؤدى إلى تضخم الثروات ، وإلى الاحتكار فى بعض الأحيان .

والنظام الشيوعى ينهض على الإرغام والعنف والثورة ، وتحطيم الاقتصاد الرأسمالى ، ومحو الملكية الفردية ، وتعميم التأميم ، وتوزيع المستهلكات على الأفراد بحسب الحاجة ، وتجنيدهم للعمل بحسب الطاقة ؛ وكثيراً ما تلجأ الشيوعية إلى تخفيف حدتها لتكون اشتراكية ملطّفة ، ولكن القائمين عليها لا يقصدون معنى التحول أو التغيير ، بل يعدون ذلك فترة انتقال ، يعودون بعدها إلى فكرتهم الأساسية ، وهى الشيوعية المطلقة .

والنظام الإسلامى يقوم وسطا بين الإفراط والتفريط ، فهو يبيح الملكية الفردية ، ولكنه يقف فى سبيل طغيانها ، ويعمل بأسلوب قويم على تفتيت تضخمها ، لا بالعنف والثورة ، بل بالعنصرين التشريعى والإقناعى ؛ وهو كذلك نظام رأسمالى ، ولكن الرأسمالية فيه مقيّدة بالعنصر الروحى والعامل الخلقى الذى يتسامى بالفرد عن أن يكون خزينة تجيد الجمع ولا تعرف القسمة .

إنه يقرر مبدأ الملكية بما لا يدع مجالا للشك أو التأويل ، فالقرآن الكريم وهو مصدر تشريعه الأعلى يقول : « وآتوا اليتامى أموالهم » فجعل لهم أموالا يملكونها ، ويقول : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة » فجعل الجدار ملكاً لهما ، ويحترم

الإسلام هذه الملكية ويقدسها ، حتى يعتبر العدوان عليها جريمة تستحق العقاب والتأديب ، فيقول : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ». ويقول الرسول هذه الأحاديث : « لا يحل مالُ امرىء إلا بطيب نفس منه » ، « من انتهب نهبة فليس منا » ، « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

ولكن الإسلام يشترط فى هذه الملكية أن تكون مشروعة ، ناشئة عن أصل طيب وطريق سليم ، كالعمل أو إحياء الموات أو الركاز «وهو استخراج المعادن من الأرض» أو استحقاق الزكاة ، أو الهبة من مالك شرعى ، أو الغنيمة فى الحرب ، أو الميراث ، أو الصيد ، أو استحقاق نصيب معين من اللقطة .. كما أباح الإسلام تنمية هذه الكمية ، وتوسيع تلك الثروة ، ولكن بالطرق المشروعة أيضاً ، كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها ، لا بغير المشروع ، كالاحتكار أو الغش أو التدليس أو الربا .

## الشيوعية والإسلام

بعد هذا التحديد الوجيز العاجل نخلص إلى موضوعنا المحدد وهو : « الإسلام والشيوعية » .

ولعل قائلا يقول : إننا نجهل الشيوعية لأنها مطوية عنا بعيدة منا ، فمن العيب فى شرعة البحث المنهجى أن تتعرض للحكم لها أو عليها ، لأن الحكم على الشىء فرع عن تصوره كما يقول العلماء . . . فنقول : إنه ما من مبدأ عام كالشيوعية يستطيع على طول الزمن وكثرة الأعداء وكثرة الأصدقاء أيضا أن يظل مختفياً ، ومعنى هذا أن ما تراه فى أرجاء العالم عن الشيوعية حق أو قريب منه ، ولو كان دعاة الشيوعية يرونه باطلا لنهضوا لتفنيد مزاعمه ، حتى يكسبوا أنصاراً جُددا لفكرتهم ، وخاصة فى البيئات الدينية ، كالبيئة الإسلامية مثلا ، لأنها تستطيع بسلطانها الروحى أن تنشر الفكرة كعقيدة ، فتستجيب لها القلوب المؤمنة فى إسراع واقتناع .

ولسنا ندرى لماذا يضع الشيوعيون حول دارهم ستاراً حديدياً ؟ ولماذا يمنعون قومهم من الرحلة إلى الناس أو رحلة الناس إليهم ، ولماذا يخفون تصرفاتهم الداخلية فى أستار وأستار ، مع أن الحق لا يخاف وضح النهار ، ولا يخشى أشعة التمحيص ؟ .

وإذن فلنا أن نتتبع الشيوعية كفكرة فى مصادرها الممكنة ، متجردين عن

الهوى والميل ، ولا نُلقى بالنا إلى أن الستار الحديدى يمنع من تصورنا لها ، فلعله يمنع أشياء أخرى لا يريد أصحابه أن يعرف العالم أنها ترتكب باسمهم ، أو أنها من نتائج فكرتهم وخطتهم .

على أن الإسلام الصحيح لا يخاف من الشيوعية ، سواء أكان الذى فيها قوة شر أم قوة خير ، والمسلمون الصادقون لا يرهبون سلطانها من ناحية الفكرة ولا من ناحية القدرة ، لأن تأثير الإسلام القوى فى أتباعه ، ومتانة مبادئه وثبات قواعده مما يعطى أتباعه الأصحاء حصانة ومناعة ضد الطوارىء . وأؤكد — كما أعتقد — أنه لو كشفنا أمر الشيوعية من أول الطريق ، وعرضنا أمامها مبادىء الإسلام غير محرَّفة أو مبتورة ، لما وجدت الشيوعية مثل هذا الجو المكفهر الذى تفرخ فيه ، لأن الممنوع مطلوب ، ولأن المحجوب مرغوب ، ولأن المستور له رهبة ورنين .

إن الإسلام دين يأخذ الحكمة من أى وعاء خرجت . ويعلم أتباعه أن يتلقوا عن غيرهم بضاعته ، فيمحصوا ثم يهضموا ثم يهذبوا ، فى حدود القواعد العامة الواضحة التى رسمها لهم ، لا يخرجون عن حدودها . والشيوعية كنظام ابتدعته جماعة لتقود به أمة قد يكون فيه نصيب من الخير ، وقد يرتضى الإسلام أخذ هذا النصيب المحدود إن وجده على معنى الاستكمال والتزود ، لا على معنى الخضوع والانطواء ، لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فهو شرعة السماء ، والسماء تعلو هذه الأرض ... وكل دعوة أرضية أو مبدأ سياسى يوهم أتباعه دائما بأنه أكمل ما وصلت إليه عبقرية البشر ، وأنه سيحقق لهم الفردوس المفقود فى هذا الوجود ، ولكن مهما بلغ الغرور بعبقرى فلن يستطيع فى شرعة عاقل ادعاؤه أنه أقوى من رب البشر ، ومن واهب القوى والقدر ! ! ..

## خطة الإســـــلام

ومع أن الإسلام دين الله رب العالمين ، والله هو العلى الكبير ، القادر على كل شىء ، هو لا يعد أهليه فى الأرض فردوسا مليئا بكل الرغبات ، خاليا من سائر الآلام ، بل يأخذ أتباعه بأسلوب الواقع ، فيُفهمهم أن الحياة يوم لك ويوم عليك ، وأن الدنيا مزيج من الغنى والفقر ، والراحة والتعب ، والصحة والمرض ، وأن دوام الحال على منوال واحد يعد من المحال ، وإلا لما كانت الحياة « دنيا » ، ولما كان هناك معنى للبعث والدار

الخلود التى شعارها: «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره».
ومتى سلمنا بهذا المبدأ الإلهى المشاهد أدلته منذ بدء الخليقة إلى اليوم كان من واجبنا أن نلاحظ أن الناس منهم غبى وذكى، وقادر وعاجز، وغنى وفقير، والفرص لا تتماثل ولا تتكافأ على الدوام، لخضوعها لعوامل لا يستطيع الإنسان التصرف معها أو التحكم فيها، فإقبال الحياة وإدبارها أمران لا نستطيع ادعاء التحكم فيهما تحكما كليا، مهما نظمنا وتذرعنا بالوسائل والأسباب: «وفوق تدبيرنا لله تدبير».

ولا يمكن للحياة العامة أن تتماثل فى جميع أنحائها، ولا يمكن للبشرية أن تتماثل فى جميع أفرادها، وقد تسبق العرجاء، وقد يكل الصارم فلا يقطع، والطاقة مجهولة، والأجل مغيَّب، وكل ميسر لما خلق له؛ ولكن هذا ليس معناه أن نترك الأمور تسير كيفما اتفق، ولا أن نخلد إلى الأرض بلا مجهود أو محاولة للتنظيم والتخفيف، فإننا إن فعلنا ذلك كتبنا لأنفسنا الفناء ولعالمنا الخراب؛ ومن هنا نرى الإسلام يشرع السبل الواسعة الواضحة المستقيمة لجهود الأفراد والجماعات لتخفيف ويلات الحياة، وحسن التصرف أمام مظاهر الطبيعة ونظم الكون.

الإسلام مثلا يسلم بنظرية الطبقات من ناحية التفاوت فى المظاهر والممتلكات، فهناك راع ورعية، وهناك عامل يستحق المكافأة، وكسول يستحق الحرمان؛ ولكنه لا يعترف بهذا التفاوت من ناحية الأصل والذات، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب؛ وهو يحارب طبقات الألوان والأجناس والأنساب والأوطان، ومن وراء هذه المحاربة يعمل ما يمكن لتخفيف آثار التفاوت فى المظاهر والممتلكات، فهو يستدر الرحمة من الأغنياء على الفقراء، ويفرض فى أموال الأغنياء حقا معلوما، ويحارب الجشع والترف، ومن جهة ثانية يستنهض همم العاجزين والفقراء لكى يعملوا فيكسبوا فيقتربوا من هؤلاء الأغنياء؛ ومن جهة ثالثة يحارب الظلم والشح، والحرمان والطغيان؛ فهو يناديك دائما: كن عاليا ولا تبغ، وكن غنيا ولا تشح، وكن كاسيا ولا تكنز، وكن منعَّماً ولكن لا تمنع زكاة مالك، وكن شبعان ولكن لاتدع جارك يبيت جائعا... ولن تؤمن حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

وهناك فى الإسلام قواعد عامة يراد بها هذا الإصلاح اللازم مثل: منع الضرر، ورفع الحرج، وسد ذرائع الفساد، ورعاية مصالح العباد؛ وفى ظلال هذه القواعد

تسير نظم كثيرة الألوان والأشكال ، لتبلغ الغاية التى يريدها الإسلام، وهى تخفيف متاعب الحياة ، وتقريب الطوائف بعضها من بعض ، ليعيشوا فى سلام ووئام .

## الإسلام والبطالة

والإسلام يكره التعطل ويحارب البطالة ، ونصوصه العامة تفيد أن القادر على العمل لايعطى صدقة ولا إحسانا ، بل يحمل على العمل حملا ، وكم جاء أناس إلى نبى الإسلام يشكون الحاجة ويطلبون المعونة ، ويبدون مظاهر الفقر ، فكان الرسول لايعطيهم وعنده بيت المال فيه ما يمكن إعطاؤه ، بل يحرضهم على العمل مهما كان قليلا ، ويهيىء لهم أسبابه ، ويرشدهم إلى مواطنه ، فيقوم بواجب الراعى الرشيد فى إيجاد فرص العمل لكل قادر عليه ، وذلك يدعونا إلى تحبيب الناس فى العمل ، فإن لم ينفع التحبيب فلنحملهم عليه حملا ، حتى لا يبقى متعطل أو كسول . ويجب أن نهيىء لكل فرد فرصة هذا العمل ، والعاجزون بعد ذلك لهم ما يكفيهم من بيت المال ، والرسول يقول : « الضعيف أمير الركب » . ولا يقبل الإسلام أن تبيت جماعته وفيهم الشبعان وبجواره الجائع ، لأن الجوع مضل ، ولأن الحاجة إلى القوت تذهب بالرشاد وتفضى إلى الفساد ، وتدفع الجائع أو المقبل نحوه إلى التفكير فى وسائل غير مشروعة للحصول عليه ، وقد أثرت عن السلف أقوال ومواقف تبين لنا خطر هذه الحاجة إلى القوت :

قيل لبعضهم وقد رأوه مغتما : ما غمك ؟ قال : سوء الحال وكثرة العيال . قيل له : لاتغتم فإنهم عيال الله . قال : صدقتم ، ولكن كنت أحب أن يكون الوكيل عليهم غيرى .

وكان الإمام الأعمش ينزل يوماً من غرفة يريد الذهاب إلى المسجد ، فلما بلغ نصف السلم قالت له جاريته : لم يبق عندنا دقيق ؛ فارتبك ، وقال لها : ويلك أكنتُ أصعد أم أنزل ؟ ! قالت : بل كنت تنزل .

ونقل عن الإمام محمد صاحب الإمام أبى حنيفة أنه قال : كنت ذات يوم جالساً ، وكتب الفقة مطروحة أؤلفها ، فجاءت جارية إلى ، وقالت : قد فنى الدقيق ؛ فذهب عن خاطرى خمسمائة مسألة مما كان نصب عينى ، وأردت إيداعها الأصول فما ذكرت منها شيئاً بعد ذلك .

وقال الإمام الأعمش : كنت عند إبراهيم ، فحدثنى ستة أحاديث فحفظتها ، فلما انصرفت إلى البيت قالت الجارية : ما عندنا دقيق ؛ فنسيت الستة !.

وقال الإمام جعفر الصادق : لا خير فيمن لا يحب جمع المال الحلال ، يصون به وجهه ، ويقضى به دينه ، ويصل به رحمه ! .

والمتتبع لعيوب المجتمع وبواعثها يدرك بسهولة أن كل رذيلة من الرذائل وراءها عيب من عيوب الاقتصاد ، أو حاجة من حاجات النفس ، أو مطلب ملح من مطالب الحياة ؛ ولذلك اعتبر الإسلام الفقر كفراً ، والسؤال ذلا ، والتعطل مقتلة ، والجوع مضلا ، وأنقذ السارق الجائع العاجز المهمَل من حد السرقة ؛ وإنه ليجب علينا أن نؤمن بأن البطون الجائعة لا تستمع آذانها إلى حديث الفضائل أو العزائم حتى تمتلىء هذه البطون .

والإسلام يعتبر « العمل » مالا متقوماً ، لأنه جهد يبذله العامل ، وينتج به شيئاً ، فيستحق عليه أجراً ؛ ولذلك يدعو الإسلام إلى مكافأة العامل ، وإعطائه حقه قبل أن يجف عرقه كما تقول بعض الأحاديث ، ويدعو إلى أن يكون الجزاء على قدر العمل ، فلا يكون الجهد المبذول عنيفاً شاقاً والأجر عليه قليلا تافها ؛ ولو انعكس الأمر فدفع صاحب العمل القادر الغنى أجراً وفيراً إلى العامل المحتاج المجهَد على عمل متوسط أو قليل ، لكان هذا الفضل محموداً ، ومن تطوع خيراً فهو خير له .

ومن الخطأ أن يظَن أن الإسلام لا يبيح الادخار ، بل هو يدعو إلى أخذ الحيطة وإعداد العدة . ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يدخر لنفسه ولأهله قوت سنة ، وشعار الإسلام فى الحياة هو تلك الكلمة الحكيمة القويمة التى قالها عمر رضى الله عنه : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وقد يتعلل بعض المثبطين فى هذا المقام بما يروى عن رسول الله عليه صلوات الله إذ يقول : « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها » ويفسرون ذلك بما يدعو إلى عدم الادخار والاستعداد للمستقبل ، وعلى الرغم من أن هذا قد يكون أسلوبا لتعليم القناعة عند من لا يجد حيلة ولا وسيلة ، وعلى الرغم من أنه لا يتعارض مع سعى القادر واستكثار المريد ، فإنه لا يستحيل علينا أن نفهم الحديث النبوى على وجه آخر ، نفهمه على أن الرسول الكريم يرشدنا إلى الدعائم

الثلاث اللازمة لاطمئنان النفس وتهيئتها للعمل والنضال ، وهذه الثلاث هى الأمان وعدم الخوف ، والصحة مع الاقتدار البدنى ، والطعام اللازم لبدنه ؛ إذا توفرت هذه الدعائم الثلاث فقد اتجه الإنسان إلى الدنيا آمنا قويا قادرا ، يستخرج منها كنوزها ، ويستنبط خيراتها ، حتى يحوزها بحذافيرها !! .

## الإسلام والاحتكار والتأمين والربا

والإسلام يحرم الاحتكار لأنه أسوأ الاستغلال ، يعمد فيه القوى صاحب المال إلى خزن المتاع حين كثرته ، ثم يحتاج إليه الناس بعد ذلك ، ولا يجدونه إلا عنده ، فيتحكم فى أثمانه ويغلو فيها غلوا فاحشا ، وللناس فى الاحتكار فنون شيطانية كثيرة ليس من منهاج بحثنا الإفاضة فيها ، وحسبنا أن نشير إلى أن روح التعاون الذى قام عليه الإسلام ودعا إليه ينفر من هذا الاحتكار كل النفور ، ويعده جريمة فى حق المجتمع يستحق عليها فاعلها العقاب واللعنة ، وهذه أحاديث نبوية شريفة وردت بشأن الاحتكار : « لا يحتكر إلا خاطىء » ، « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة » ، « من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء ، وقد برئت منه ذمه الله » ، « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس » ، « من احتكر الطعام أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه ، وأيما أهل عرصة أصبح فيها امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

بل يذهب الإسلام إلى أبعد من هذا ، إنه ينظر إلى الحاجات الضرورية للحياة على أنها مصالح عامة ، يجب أن تكون مشتركة بين الناس ، حتى لا يحرم منها محتاج ، ولذلك قال الحديث : «الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار» وهذه الثلاثة كانت مهمة جد اللعرب الذين يعيشون فى الصحراء الجافة المجدبة التى لا يوجد بها مواقد ولا كهرباء ، وبناء على هذا الأصل تستطيع الأمة المهتدية أن تخضع الضرورات المعيشية العامة لمثل هذا الاشتراك المنظم المفيد .

وإنما يفعل الإسلام ذلك لأنه يُفهم العباد أن المال الذى فى أيديهم ليس مالهم على وجه الحقيقة ، بل هو مال الله فى الأصل ، وضعه فى أيديهم ، وجعلهم خلفاء فيه ووكلاء عليه ، فيجب أن يحسنوا الخلافة ويتقنوا الوكالة . يقول القرآن : « وأنفقوا مما جعلكم

مستخلفين فيه » . ويقول : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . والدليل العملى الواقعى على أن المال الذى فى أيدى الناس هو لله ، أباح لهم أن ينفقوا منه على أنفسهم أولا ثم على عباده المحتاجين ثانيا ، ثم على المصلحة العامة ثالثا ؛ أن بيت المال الإسلامى وهو بمثابة وزارة المالية فى الدولة الآن ، يستولى على الإرث الذى يتركه الإنسان بلا وارث .. فلما انعدم الخليفة فى المال بعد موت خليفته الأول رددنا المال إلى أصله وهو بيت مال الله .

والإسلام لا يرضى عن نظام التأمين بحيله المعروفة ووسائله الكثيرة ، لأنه تدجيل وتغرير باسم التعاون وباسم الربح ، ولأنه يقوم على أعمال ربوية ، ولأنه يهيىء الفرص لقيام شركات استغلالية كبرى ، تستثمر أموال الأفراد ، وتسخرها فى مصلحة منشئيها ، ولأنه معاملة تقوم غالبا على مجهول ، والأصل فى التعامل أن يكون محدداً معلوما .

والإسلام يحرم الربا ، لأنه نوع آخر من أنواع الاستغلال المقيت ، ولأنه تعويد لأصحاب رءوس الأموال على الكسل والنوم ، ولماذا يعملون ومعهم أموال يقرضونها اليوم لتعود إليهم غداً وفوقها ربح ومكسب ؟ .

وفى القرآن آيات كثيرة فى تحريم الربا قليله وكثيره ، ومنها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وخير من هذا الربا نظام التعاون الذى يحبه الإسلام ويدعو إليه فيقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وكثير من الناس يعتقدون أن المجتمع المعاصر لا يستطيع أن يستغنى عن المعاملات الربوية بأية حال من الأحوال ، وهذا صحيح مادام المجتمع يسير بلا دين ، أو مادام يأخذ من الدين جزءاً ويترك أجزاء ، مع أن العقل والشرع يقضيان بأن تؤخذ الملة كلها للتطبيق ، حتى تتعاون جميع تعاليمها على إيجاد الحياة الصالحة التى تدعو إليها وتعمل لها ؛ ولو ساد نظام التعاون أى مجتمع لما وجد نفسه محتاجا إلى الربا .

## الإسلام والترف

والإسلام يحارب الإسراف والتبذير والسفه فى التصرفات ، ويجيز الحجر على السفيه حتى لا يستمر فى تصرفاته المالية المعوجة ، والقرآن يقول : « ولا تؤتوا السفهاء

أموالكم ». قيل إن السفهاء هم المبذرون الذين ينفقون أموالهم فيما لاينبغى ، ولايد لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها ، والخطاب للأولياء ، وأضاف الأموال إليهم لأنها من جنس مايقيم الناس به معاشهم . ويقول القرآن : « ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » . ويعتبر المترفين المسرفين أصل كل بلاء ونكبة ، وسبب كل كفران وتمرد ، فيقول : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » ويقول عن المعذَّبين يوم القيامة: « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم » . ويقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

والسبب فى هذه الحملة أن المترفين يغرقون أنفسهم فى هذا الترف ، فيوقظون رذائلهم ويقتلون الهمم والفضائل فيهم ، بينما يوجد من حولهم آلاف لايجدون ضرورى القوت ، فيضطرب حبل الحياة ويختل نظام المجتمع ، وتبيض الجريمة وتفرخ ؛ وكثيراً ما يغرى الترف والغرق فيه بأخذ الأموال دون حق والازدياد من السحت والحرام بلا ارتداع ؛ والإسلام يريد لأهله بعد طيب معيشتهم أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ؛ يقول الرسول صلوات الله عليه : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » . ويقول : « يا معشر المهاجرين والأنصار ، إن من إخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة » . ويقول : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » . ويقول : « إن أقواما يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة » .

وفى عام الرمادة الذى قلت فيه الأقوات ، وانتشرت المجاعة وانقطع المطر أراد عمر الفاروق رضى الله عنه أن يطبق شرعة التكافل بين الناس ، والتعاون بين الغنى والفقير فقال : « نطعم ما وجدنا أن نطعم ، فإن أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد عُدَّتهم ممن لا يجد ، إلى أن يأتى الله بالحيا » .

وكذلك كتب عمر إلى عمرو بن العاص واليه على مصر فى عام الرمادة يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص ، سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكا ومَن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك ؟ فياغوثاه ياغوثاه

. ياغوثاه ! » فاستجاب عمرو لأمير المؤمنين بنجدة طويلة وصفها بأن آخرها عنده وأولها عند أمير المؤمنين ! .

## الزكاة فى الإسلام

إن الإسلام يعمل دائماً ليحفظ المسلم من فقر يعرضه للكفر ، ومن كنز يعرضه للطغيان ، وإذا صار المرء وسطا بين فقر وغنى ، فقد استقام له الطريق : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

وقد جعل الإسلام الزكاة المفروضة أول العوامل التى تحقق ذلك الاعتدال ، فإنها حق معلوم واجب فى مال الغنى وحصاده ، يُرَد إلى الفقير أو المحتاج ، وبخروجه من مال الغنى تخف حدة غناه ، فيقترب من صراط الاعتدال ، وبأخذ الفقير لهذا النصيب المفروض يرتفع قليلا عن فقره المدقع ، فيدنو كذلك من هذا الصراط ؛ وبذلك لا يوجد فى الأمة فقر مهلك ، ولا غنى مفرط ؛ وإنما تحقق الزكاة هذا الاعتدال إذا بدأت إسلامية وانتهت إسلامية ، لا أن يكون العنوان عنوان زكاة ، والحقيقة تنطوى على اختلال أو مداجاة ؛ فالزكاة تكفى وتشفى بشرط أن تجمعها الأيدى الأمينة ، وأن تنفقها الأيدى الحكيمة ؛ وأن تؤخذ كفريضة واجبة ، لا كمنحة ولا تطوع ، وأن يحارَب المرء إذا منعها ، كما فعل أبو بكر مع مانعى الزكاة فى حروب الردة .

وحين تُجمع الزكاة بهذه الصورة ، ونحرص على توزيعها بذلك النظام ، يكون بيت المال ممتلئاً ، ويكون مسئولا حينئذ عن رعاية كل عاجز فى الدولة ، حتى ولو كان غير مسلم ، مادام خاضعاً للنظم العامة فى الأمة ، فقد رأى عمر رضى الله عنه ذمياً يسأل وهو طاعن فى السن ، فقال : ما أنصفناك ، أخذنا منك الجزية وأنت قادر ، ونتركك الآن ؟ !. . وخصص له ما يكفيه ..

## الشيوعية

كان لا بد من هذا الإلمام السريع بأهداف الإسلام الاقتصادية والاجتماعية ، لأن ناحيتى الاقتصاد والمجتمع هما أهم ما تعنى به الشيوعية كنظام ؛ وبعد هذا التصوير لنظم الإسلام وتعاليمه يمكن أن ننتقل إلى عرض الشيوعيـة حسبما نعلم عنها ، ومن الميسور للقارىء المتتبع أن يدرك مدى الاختلاف بين منهج الإسلام ومنهج الشيوعية ..

## لمحة تاريخية

قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون تقريباً فكر «أفلاطون» فى نظام الشيوعية على صورة خيالية واسعة ، إذ دعا إلى « شيوعية المال والنساء » ، بعد أن شـاهد ويلات الحرب اليونانية التى كان مصدرها فيما يرى التفاوت والتنافس ؛ وبعد أفلاطون بقرابة ستة قرون عاد «مزدك» الفارسى يفكر فى نفس النظام ، حينما هاله سوء التوزيع فى الثروة وفى الفرص ، وبعد مزدك بقرون ظهر « القرامطة » يدعون إلى نفس النظام ، حينما رأوا المجتمع مختل الأسس ، فمحظوظ ممتّع بلا حساب ، وذليل محروم بلا شفقة .. ثم ظهرت حركات مماثلة فى الشرق والغرب ، وكلها كانت وليدة شذوذ ظاهر فى الحياة الاجتماعية ، واتساع غير مستساغ فى الفروق والموازين .

وحينما ظهر « كارل ماركس» سنة ١٧٤٧م بنظريته المادية الخالصة التى تؤمن بالحس وتكفر بالمثل العليا والمعنويات والروحانيات والأخلاقيات ، وتنادى بإحلال النشاط الجماعى محل النشاط الفردى ، كانت روسيا تحترق بنيران قاسية من الاستبداد والظلم ، والكبت والاضطهاد ، وهذا يؤكد ما ألمعنا إليه سابقاً من أن روح الشيوعية لا تظهر إلا كرد فعل متمرد لطغيان يزيد عن حده فينقلب إلى ضده ، ولعله من أعجب العجب أن يكون واضع الشيوعيـة هو « كارل ماركس اليهودى » ، واليهود عبيد الذهب من قديم الزمن ، وأسارى الجمع والكنز ، فماذا يكون الدافع ليهودى إلى نظام شيوعى ، إلا أن يكون الضيق الثائر بما أصابه من حرمان ، فى مجتمع يريد هو فيه أن يكون خزينة ذهب لا إنساناً يسعى بين الناس ؟ !

## مبادئ الشيوعية الأولى

حسبنا أن نسوق هنا طائفة من مبادئ الشيوعية التى تعتبر دعائم نظامها الأولى ، وهى كافية لتوضيح موقفها من الإسلام :

١ — ليس هناك فى الكون إله ، والحياة مادة ؛ يقول كارل ماركس : « لا إله والحياة مادة » ، ويقول أستاذه هوبز : « أنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله ، إن وجودى الخاص هو وحده المؤكَّد ، أما وجود ما عداه فخيال لا أصدقه » . ويقول أنجلز : « إن الحديث عن كائن أعلى خارج العالم الموجود ( يقصد الله ) يتضمن تناقضا فى التعبير » .

٢ — لا ملكية للفرد ، والأشياء كلها ملك للدولة ، وعلى الفرد أن يبذل طاقته ، ويأخذ حاجته .

٣ — التجارة ممنوعة فى الداخل ، ومحرمة على الفرد فى الخارج ، والدولة هى التى تتولاها .

٤ — الدين أسطورة اخترعها محترفون أو خادعون لمصالح ذاتية شتى ، ولذلك يعتبر الدين « أفيون الشعوب » يخدرها أولا ، ثم يقضى عليها أخيراً ، فتجب محاربته والقضاء عليه قبل أن يقضى علينا ؛ يقول كارل ماركس : « رسالة العمال الشيوعيين هى القضاء على الدين والداعين إليه » .

٥ — قيود الأسرة الموروثة المعروفة فيها ثقل وإرهاق ، فيجب أن تحطَّم ، وأن يباح للمرأة الاختلاط والاتصال بالرجال فى مجال واسع .

فأنت ترى من هذه المبادىء أن الشيوعية تزعم أن جميع الروابط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تنشأ على المادة ، وأن المعدة من حيث خلاؤها وامتلاؤها يتوقف عليها تطور المجتمع ؛ وكأنها تريد أن تجعل الدنيا من أولها إلى آخرها ، والأعمار من بدايتها إلى نهايتها عبارة عن مصنع آلى ، لا نسمع فيه إلا ضجيج العجلات ، ولا نرى فيه إلا دخان الأجهزة ، ولا نشم فيه إلا رائحة النفط «البترول» . وما أسمجها من حياة ؛ على حين نرى الإسلام يحفظ للمادة كيانها وسلطانها ، ثم يحكم قيادها ويكبت طغيانها بقوى الروح والأخلاق والتراحم .

وأنت ترى أن الشيوعية تنكر « الله » ، والإسلام دين لا يقوم إلا بالله ، ولا يدور إلا حول عبادة الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

وأنت ترى أن الشيوعية تلغى الملكية الفردية ، فتصادم الغريزة الأصلية فى الإنسان وهى غريزة التملك ، بينما الإسلام يبيح هذه الملكية ويخدمها ، ويصد العداة عنها ويتوعد بأشد العقاب الذين ينتهكون قداستها : وهو يبيح لطاقات النبوغ والنشاط والدوام فى العمل ثمرات ونتائج توفر الرضا لصاحب المجهود ، وتغرى الكسول بالمنافسة ؛ والإسلام فى الوقت نفسه يضع الحدود والسدود الرقيقة الوثيقة فى آن واحد أمام هذه الملكية حتى لا يتكون منها رأس مال بشع ينذر بالويل والثبور ؛ ولا يكاد الدارس للاسلام عن بصيرة يتصور أن ينشأ فى ظل الإسلام رأس مال مزعج ، فإن الغنى مطالب بالإنفاق على نفسه وأهله وذوى قرباه المحتاجين إليه ، ثم تأتى عليه بعد ذلك الزكاة فتقلم أظفار ماله باستمرار ، ثم يأتى الإحسان فيثير فى بعض الأحيان قلب الغنى نحو البر والمعروف ، ثم تأتى حقوق الدولة التى يفرضها الوالى حين الحاجة أو النازلة ، فتصبح لها قوة الفرض ووجوب الدفع ؛ ثم يأتى بعد ذلك الميراث الذى يوزع الثروة هنا وهناك فى أيدى الفروع أو الأصول أو الأقارب ؛ فكيف يبقى بعد ذلك فى ظل الإسلام الصحيح رأس مال مزعج ؟ ! .

وأنت ترى أن الشيوعية تحرم التجارة على الفرد ، والإسلام يناقضها فى ذلك ، فيقول : « أحل الله البيع » ويقول : « . . . إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » .

وأنت ترى أن الشيوعية تحارب الدين ، والإسلام دين ، فكأنها تحارب الإسلام باعترافها . بل إن الإسلام يعتبر تمام الأديان السماوية كلها ، فكأنه هى بأجمعها مصفاة منقاة . . . وليس بصحيح أن الإسلام يخدر أهله أو يصدهم عن العلا ، فمبادىء الإسلام العامة والخاصة توجب على المسلمين أن يكونوا فى الكون عمالقة بعلمهم وعملهم واقتصادهم وصحتهم وقوتهم ، وأن يكونوا فى الوقت نفسه ملائكة بأرواحهم وأخلاقهم وسمو فعالهم .

وأنت ترى أن الشيوعية تلغى قيود الأسرة ، بينما الإسلام يعتبر الأسرة المستقرة المتماسكة لبنة أولى فى بناء المجتمع ، ولذلك أقام الإسلام نظام التربية والأخلاق على

الأسرة : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » . ويقيم فرائضه فى الميراث على روابط الأسرة ، لأن الوارثين إما أن يكونوا فروعا أو أصولا أو أقارب ، والرسول بعد هذا يبين مدى الارتباط بين الأب وابنه حين يقول : « أنت ومالك لأبيك . . »

## أخطاء أخرى

تسوى الشيوعية بين العاملين ( عضليا أو عقليا ) فى الأجور ، لأنها تزعم أن الناس متساوون فى الجهود ، وهذه كما ترى مكابرة وإنكار للواقع الملموس ، ولأنها لا تفرق بين مجهود ضخم ومجهود كبير ، ولا بين ما يحتاج إلى إعمال فكر وإرهاق أعصاب وبين مالا يحتاج ، وهذا سفه فى الرأى والحكم ، فكيف تتساوى ساعة يقضيها عامل أمام جهازه التافه وساعة يقضيها باحث مخترع ، يحرق فيها أعصابه وعقله وجسمه ليخرج لنا كشفا باهرا من كشوف الحياة الواسعة .

قد يقال إن دعاة الشيوعية قد أفاقوا لأنفسهم ، وعدلوا هذا ؛ وأدخلوا فى تقديرهم تفاوت الجهود ، فخرجوا على توحيد الأجور ، ولكن هذا لم يكن إيمانا منهم بخطأ مذهبهم ، أو رجوعا منهم عن خطئهم ، وإنما هى كما يعبرون « مرحلة انتقال » رأوا أنفسهم مضطرين إليها ، حتى يصلوا إلى صبغ مجتمعهم بالصبغة الشيوعية الكاملة ، وهذا كما يصرحون يحتاج إلى صبر وانتظار . .

وبعد انتهاء « مرحلة الانتقال » يعودون إلى المساواة فى كل شىء بلا تفرقة أو تمييز ، ومعنى هذا أن الشيوعية تهمل فى الإنسان غرائزه وعواطفه وميوله وانفعالاته كما تخنق فيه طاقات الذكاء والعبقرية ، وتعامله كآلة صماء يجب عليها أن تتحرك وتتحرك ، وتترك لمحركها مهمة إمدادها بالوقود ، فكيف يصح للانسانية عيش مع هذا التسخير ؟!.

الفرد فى ظل النظام الشيوعى خلية تعمل ، ولكنها تعمل فى طوفان من خلايا ، ولا ترى لنفسها خلال هذا الطوفان استقلالا أو مجالا ، بل هى كالجندى المسخَّر فى صفوف القتال ، يضرب بيد قائده ، ويتحرك بإرغام من قانون صارم .

قد يكون لذلك فائدة التجميع والتسخير الشامل والتعبئة العامة ، ولكن له خطر القضاء على الشخصية والقوة المعنوية والرغبة الطاغية فى التميز والاستقلال .

وما أجمل أن نأخذ هنا بطريق الإسلام الوسط ، فنعطى الشخص حريته ليعمل ، ثم نراقبه لكيلا يخرج عن نطاقه المحدود ، ثم نأخذ منه حق البيئة والجوار والإنسانية ، بعد أن نحيي فى قلبه معانى الخير ودوافع الفضيلة .

## من يتولى الأمور ؟

وتذهب الشيوعية إلى أن الحكومة يجب أن تتولى كل شىء من ناحيتى الإنتاج والتوزيع ، فهى المسيطرة الأولى والأخيرة على المزارع والمناجم والمصانع والمتاجر ، وهى صاحبة التصرف المطلق فى كل مايتعلق بالاستثمار والإنفاق ، ومن وراء ذلك أخطار :

أولا : الحكومة مهما كانت صلاحيتها وطاقتها مجموعة من الأفراد معرضون للخطأ ، والأمة هى التى تتحمل فى النهاية أوزار أخطاء الحكومة ، ومن عجب أن المسئولية حين الخطأ لا تنحصر فى الحكومة ، بل هى أمر مشاع بين الجميع ، وحينما تعطى الأمة للحكومة سلطانا مطلقا فى أى نظام لا يكون هناك إلا التحكم والاستبداد .

ثانياً : هذا النظام قتل للحرية الفردية فى الإنتاج والاتجار والاختيار والادخار .

ثالثاً : يؤدى هذا النظام إلى كثرة النفقات مع قلة الإنتاج الحقيقى ، لأن الفرد بحكم غريزته لايخلص حينما يعمل للحكومة كما يخلص حين يعمل لنفسه .

رابعاً : يؤدى هذا النظام أيضاً إلى التعقيد فى التوزيع مع الإهمال فيه ، لأن الإنسان لا يحسن إلا ما يخصه وينفعه شخصياً ومباشرة .

خامساً : تجارب الأمس واليوم تنادى بأن الحكومة تفسد كل شىء تتولاه ، لأن شهوة الحكم وبريق المنصب ووسوسة الاستغلال وخشية العزل والاستعداد للطوارىء والتنبه للخصوم ، كل هذه عوامل تجعل من الحاكم شخصا منهوب الجهد .

الحكومة يجب أن تكون مهمتها المحافظة على الأمن والنظام ، وإيصال كل حق إلى مستحقه ؛ ومنع كل باغ من بغيه ، والتشريع لخير الجماعة حينما تلوح الحاجة ، والفصل بين المتخاصمين ، وتنفيذ الأحكام ، والسهر على المصالح العامة ، وحراسة الحمى والدفاع عن الوطن ؛ وإنها لواجبات ثقال لاتقبل أن تزاحمها السيطرة على أمور الإنتاج والتوزيع !

## الإرث بين الشيوعية والإسلام

والشيوعية تحرم الإرث ، وهى هنا لا تخالف الإسلام وحده ، بل تخالف جميع الأديان السماوية التى شرعت الإرث ، بل وتخالف الشيوعية نفسها هنا ، لأنها تريد توزيع الثروة ، ثم تحرم الإرث ، مع أن الإرث توزيع للثروة ، إذ ينتقل ملك الفرد الواحد إلى أفراد كثيرين فتتفتت ثروته .

وقد قرر الإسلام نظام المواريث ليتمشى مع الطبيعة البشرية ، وليرضى عواطف الأبوة والأمومة والبنوة والقرابة وصلة النسب . وإذا كان الإسلام قد فتح الباب لرأس المال من جهة بإباحة الملكية ، فإنه عمل بالميراث على تحطيم تضخم هذا المال أولا بأول .

والإرث يهيء للأب أن يقدم ثمرة أتعابه إلى ثمرات قلبه الذين قد لا يتاح لهم ما يتاح له من الفرص ، وهو كذلك نوع من الارتباط المحبوب بين الآباء والأبناء ، يشعر به الخلف فيذكرون بالخير السلف ، ويقولون : « لقد ترك لنا آباؤنا ، فيجب أن نترك أيضاً لأبنائنا » فيعملون ويجاهدون .

وحينما يحس المرء بحرمانه من نظام التوريث لا يعمل ، وتضيق الحياة فى نظره ، ويسمج العيش ؛ إذ ما معنى أن ينصب الإنسان ويجمع ، ليذهب ذلك كله إلى غيره ممثلا فى الدولة ، بينما يحرم منه فلذات الأكباد ؟ . .

ويظهر أن الشيوعية نفسها أحست ببعض هذا فتراجعت ، وأباحت نوعا مبتوراً من التوريث ، ولو استجاب دعاتها لصوت الواقع والحق لعادوا إلى نظام التوريث بصورته الكاملة فى الإسلام . . .

## الرجل والمرأة

والشيوعية تحاول أن تلغى جميع الفوارق الطبيعية والاجتماعية بين الرجل والمرأة ، فهى تجعلهما متساويين فى كل شيء ، وهذه مكابرة ، فثمة فروق بين الرجل والمرأة مهما كانا ، والإسلام يختط طريقاً وسطا فى هذا ، إنه يسوى بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق التى توفر لكل منهما الحياة السعيدة والشخصية القويمة ، ولكنه فى الوقت نفسه يجعل لكل منهما ميدانا يختص به غالبا ، ويجعل للرجل بحكم كفايته القوامة على المرأة :

« الرجال قوامون على النساء » ويجعل الحكم للرجل : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . ويجعل للرجل ضعف ميراث المرأة لاتساع تبعاته ومسئولياته .

والشيوعية تهين المرأة فى الوقت الذى تزعم لها فيه أنها سوّتها بالرجل ، فهى ترغمها على العمل ، وإذا لم تشتغل حرمت من الطعام ، فشعارهم فى ذلك : « من لا يعمل لا يأكل » .

ومن نظام الحياة الزوجية عندهم أنهم يقولون : « ليس للرجل حق مراقبة زوجته مع أصدقائها من الرجال أو النساء ، وليس له الاطلاع على رسائلها الخاصة » فكيف تستقر مع ذلك حياة زوجية سعيدة ؟

وفى النظام الشيوعى يشتغل الزوجان خارج الدار دائما ، ولا يجتمعان إلا ليلا ، ولكل منهما حريته المطلقة ، والأولاد تربيهم الدولة فى الملاجىء ودور الحضانة ، ولكل من الزوجين حق الانفصال عن قرينه حينما يريد ، بلا معارضة من الجانب الآخر ، ولذلك يتكرر فى النظام الشيوعى الزواج والطلاق بصورة شنيعة ، حتى تزوج بعض كبارهم أكثر من ست وثلاثين مرة !.

## طريقة الدعوة

والشيوعية نظام ثائر ، فهى تدعو إلى تحقيق مبادئها بالثورة الدموية المخربة ، لتبنى نظاما جديداً تؤمن هى بأنه خير مما كان ، وحينما تولى لينين زعيم الشيوعية الحكم سنة ١٩١٨ أسال أنهاراً من الدماء ، وقتل آلاف الفتيان والرجال ، وأزهق الحريات باسم توطيد النظام الجديد ، واستبد الحزب الشيوعى بالسيطرة والسلطان — ولا تقل بالحكم والإصلاح — حتى قال مازاريك : « إن الشيوعية أنقذت روسيا من القيصر لا من القيصرية ، فقد ارتدت ثوبها مقلوبا » .

وتحث الشيوعية أتباعها وأنصارها دائماً على أن يشعلوا نار الثورة على الأغنياء وأصحاب رءوس الأموال ، حتى يحطموا كل بنيان أقاموه ، وبذلك يتساوى الناس فى جميع الأشياء . يقول كارل ماركس : « لن تستطيع طبقة العمال ( يقصد الشيوعيين ) أن تنهض بنفسها إلا إذا نسفت جميع الطبقات المتعالية فوقها » . تفعل الشيوعية هذا بدل أن تصلح فساد الأغنياء وتنزل بهم قليلا ، وترتفع بالفقراء قليلا ، فتتدانى الطبقتان بلا ثورة أو دماء .

والإسلام الحنيف العظيم دين لا يؤمن بالثورة ، بل يعتمد على الإقناع والبرهان : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وإنما يسلك الإسلام هذا الطريق الإقناعى لأن قوة مبادئه وسطوع حججه واستقامة تعاليمه كافية فى جذب الناس إليه ، ولكن الإسلام قد يضطر فى ظروف قليلة وقاسية إلى الوقوف موقف الدفاع أو الهجوم على العدو الصريح ، إذا لم يكن من الهجوم بد .

## تبلبل الشيوعية

والشيوعية رغم أنها مذهب مر بدور الفكرة والنظرية ، ثم بدور التطبيق والتنفيذ ، لا تزال تتعثر فى خطاها ، وتتراجع فى آرائها ، فهى أولا تلغى الملكية إطلاقا ، ثم ترى هذا محالا وخطيراً ، فتتراجع وتفتح باباً ضيقاً للملكية الشخصية فى بعض الأشياء ؛ وهى توحِّد الأجور إطلاقا ، ثم ترى هذا مفتاحا للكسل والتواكل ، فتتراجع وتجعل هناك تفاوتاما فى الأجور ؛ وهى تنكر الإله وتحارب الدين ، ثم ترى أن هذا يفقدها صداقة المتدينين ، « فتتظاهر » بإباحة بعض الشعائر الدينية ، وهكذا .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الشيوعية لا تزال غير مستقرة ، وأنها جاءت نتيجة الكبت الطويل ، فكانت انطلاقا بلا حدود ، وهذا هو عين الفوضى ؛ فكيف تقاس إذن إلى الإسلام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟! .

## الربا بين الإسلام والشيوعية

نعم إن الشيوعية تحرم الربا ، وهذا « مظهر » من مظاهر الاتفاق الفرعى بين الشيوعية والإسلام ، ولكن شتان ما بين تحريم وتحريم ؛ الشيوعية تحرم الربا بعد أن لم يبق مع وجودها أى مجال للربا ، فلا تجارة ولا نشاط ، والإسلام يحرم الربا ويحل التجارة والكسب والملكية : « وأحل الله البيع وحرم الربا » . فكأنه يمنع الاستغلال الشىء من ناحية ، ويبيح الكسب والملك من ناحية أخرى ، فهو يمنع الضرر ويتيح الفرصة للثمر .

وكثير من الناس يحاول اتخاذ هذا الشبه الفرعى وأمثاله أساساً للتقريب بين الإسلام

والشيوعية ، وهذا خطأ . لأنه مادام الإسلام يوجد فيه مافيه من خير مادى وروحى ، فليقم على قدميه وحده مستقلا ، بلا استناد أو استعانة ، وهدى الخالق أسمى وأقوى من عمل المخلوق .

وفى الوقت نفسه نحن لا نرى الإسلام مضطراً إلى معاداة الشيوعيين ، إلا إذا وقفوا فى طريقه أواعتدوا عليه ، كما أن الإسلام لا يرى نفسه مضطراً إلى مجاراة الشيوعيين ، إلا إذا جاءه عن طريقهم خير لدعوته أو لأبنائه .

## خوف منحرف

الكثير منا يخاف من الشيوعية لأنها نظام سيغير نظاما ألفناه وحرصنا عليه ، ولأن الشيوعية ستهدم أبنية يعمل أصحابها جاهدين لإبقائها والاستزادة منها ، وقد لا يكون لها بالإسلام سبب وثيق ، ولو أردنا الاستقامة فى مجاهدة الشيوعية ، لجاهدنا فكرة بفكرة ، ونظاماً بشرياً بنظام ربانى ، والسلاح فى المجاهدة هو الدليل والبرهان ، ولنعف عن الطغيان والجبروت ، فما ولدا إلا عناداً أو إصرارا ، ولننظف الطريق من دوافع الشيوعية وأعشابها ، كالفقر المدقع مع الغنى الفاحش ، والجوع المهلك مع التخمة المميتة ، ولنوفر للشعب مستوى من الحياة كريماً يليق بالإنسان الذى قال فيه القرآن دستور الإسلام : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

فلنوفر لذلك الإنسان مهما كان العمل ، والضرورى من الغذاء والكساء ، والمسكن ، والفراش ، والدواء ، والمعرفة ، وإذا كان لابد لنا من الانخداع بالألفاظ ، ونريد « الشيوعية » وهى بمعنى المساواة المطلقة . فلتكن فينا شيوعية لا كشيوعية غيرنا . . . نريد مساواة مطلقة فى القيمة الإنسانية والكرامة الشخصية والحقوق الفردية والاعتبار الذاتى . . .

نريد أن تقضى على الافتخار بالأسر والطبقات والدماء والمراتب والمناصب والألقاب .

نريد ألا يأنف العظيم مهما كان من أن يأكل فلاحوه بقايا طعامه .. نريد ألا يأنف عظيم من أن يضع يده الغضة البضة البيضاء فى يد الفلاح الخشنة السمراء ؛ ولا أن يأنف كبير من التودد إلى أخيه فى الوطن الذى يصهر بدنه تحت الشمس ليحيله وقوداً يسير به ركب الحياة !

## مظنة الخوف

نحن نطالب بتطبيق الإسلام فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، وكثير من الناس يخافون هذا ، لأنهم يخشون إخضاع الناحية الاقتصادية للصبغة الدينية ، وفى ذلك من الخطر والضرر ما فيه ، لأن تاريخ البشرية يتحدث فى أغلب مواقفه عن سوء الاستغلال الذى أخفى فيه « رجال الدين » والمتظاهرون بصبغته ، فادعوا لأنفسهم سلطاناً ربطوه بالسماء ، وجعلوا لهم ولأوضاعهم قداسة ربطوها بالدين ، والدين الصحيح عدو لذلك كله وبرىء منه ، والإسلام بوجه أخص أعدى الأعداء لذلك الاستغلال الدنىء ، ومن الواجب تجريد الكذبة من « رجال الدين » من كل سلطة مفتعلة ، والحيلولة بين الجبارين وبين سوقهم لرجال الدين أحياناً كالعبيد ، يسخرونهم لصنع الفتاوى وتوسعة التأويل ! ..

لقد مر على الدنيا زمان كان « رجال الدين » الكذبة فيه يتمرغون على أقدام الأغنياء والقادرين والحاكمين ، لينالوا فتاتاً من موائدهم ، أو هباء من ذهبهم ، أو سنداً من جاههم ، أو ليتجنبوا عنتاً من غضبهم ، ورهباً من تطاولهم ؛ ويحتال رجال الدين ليجمعوا الدانق والدرهم والدينار من حل ومن حرمة ، ويشتطون فى التخريج والتأويل لأنفسهم ، ويسرفون فى الاحتيال والتخلص ، ثم يخرجون إلى جماعات الشعب الكادحة المحرومة المعدمة ، فيرتلون لهم الأناشيد الضالة والترنيمات المكذوبة ، يعللونهم بالنعيم المقيم فى الدار الآخرة ، ويكرّهونهم فى الدنيا وطيباتها ، ويسكّنون جراحهم البليغة بوعظهم الكذوب . . .

## وأخيراً . . .

نستطيع أن نقرر فى نهاية البحث أن الشيوعية لا توافق الإسلام ، وأن الإسلام خير منها وأفضل ، ولكننا فى الوقت نفسه لا نريد أن نجاهر الشيوعيين بعدوان ما داموا لنا مسالمين ، ولا أن نلقى بأنفسنا فى أحضان سوانا ، بل لنا منهاجنا وطريقنا ، ولنا عقيدتنا نؤمن بها ونعمل لها وندعو الناس إليها ؛ إذ أنه لا يكفى أن نتغنى بالإسلام دون أن نعمل به ، وإلا قيل : هؤلاء قوم يسخّرون دينهم لغير ما أنزله الله .

والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

# الاسلام وتحديد النسل

## رأى الدين يجب أن يكون أولاً

أخذ كثير من المسئولين يطلبون أخيراً رأى الدين فى تحديد النسل ؛ وإنه لجميل جداً أن نرى الكبار من رجالنا يطلبون رأى الدين فيما يبحثون من مسائل ، وخاصة إذا كانت مسائل هامة لها مكانتها وتأثيرها ، فذلك تقدير منهم للدين نشكره ونستزيده . ولكن المهم أن تكون كلمة الدين مطلوبة أولا ، وأن تكون مسموعة مطاعة فى فاتحة الأمر وخاتمته ، لا أن تكون شيئاً مكملا ومتمما ، يأتى فى النهاية وعند الحاجة . فقد مرت علينا عهود وعهود رأينا كلمة الدين فيها منسية مهملة ، وخاصة من الكبار ، لا يلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، إلا حينما يحتاجون إليها ، لتدعيم رأى من آرائهم ، أو نصرة مذهب من مذاهبهم ، أو تسويغ ما يريدون تسويغه عن طريق التأويل والفتوى . وبعد أن تنتهى الحاجة يعود إعراضهم عن الدين واستماع كلمته فى سائر شئون الحياة ، حتى صارت النصوص الدينية من طول إهمالها والإعراض عنها كأنها آثار تاريخية لا نبحث فيها إلا عند اللزوم ، وعند ما نأمل أن توافق هوانا أو تسير فى ركابنا . وهذا ضلال وإثم كبير ، فالدين يجب أن يطاع أولا وقبل كل شىء ما دمنا به مؤمنين ، ويجب ألا يتجزأ فنأخذ منه ما نحب ونهوى ، ونعرض عما لا نشتهى . يجب أن يكون الدين كلاً ووحدة ومجموعة متماسكة ، تؤخذ للتطبيق دفعة واحدة ، وإلا فمعنى هذا أن الدين لا يستخدمه المغرضون إلا فى تحقيق مآربهم وتثبيت مراكزهم وتنفيذ آرائهم ، وجلت كلمة الدين ، إنها لأعلى من ذلك وأسمى ، لأنها كلمة الله ، والله هو خير الحاكمين : « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ، « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ؟ .

## المراد بتحديد النسل

إن المراد من كلمة « تحديد النسل » هو تقليله ، ووضع الحوائل أمام إطلاقه وكثرته ، بمعنى أن يكون لكل زوجين عدد قليل محدود من الأولاد ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ،

فإذا وُجد هذا العدد القليل عمل الزوجان بمختلف الوسائل على عدم الإنسال بصفة دائمة أو مؤقتة . وأظن أنه لايوجد عاقل صحيح التفكير سديد الرأى يقول بالقضاء على النسل وإعدامه بالكلية ، وإلا كان معنى ذلك عاجل الفناء .

## أصول يرعاها الإسلام

وقبل الحديث عن رأى الإسلام التفصيلى فى تحديد النسل يهمنا أن نقرر أن الدين الإسلامى الواقعى العملى الجامع بين أمور الدين وأمور الدنيا يحرص فى أصوله على الأمور الأساسية الآتية : اتساع الحياة وتعمير الكون — الزواج والإنسال — الاهتمام بتربية الأولاد — السعى لتحصيل الرزق — إعداد الحياة العدة للدفاع — احترام الإنسانية — السمو بها وتهذيبها .

نعم يريد الإسلام من أتباعه أن يوسعوا الحياة ما استطاعوا ، وأن يعمروا أرجاء الكون ما قدروا ، والقرآن يخاطب الناس قائلا لهم عن خالقهم : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وكل شخص قُدمت إليه هدية من كريم عزيز يجب عليه قبولها والانتفاع بها ، والزواج فى الإسلام شرعة باقية يؤجر عليها صاحبها إذا خلصت نيته فيها ، كما يؤجر على الذرية والتعب من أجلها ، والإسلام يوجب على الوالد أن ينهض بتربية الأولاد وتنشئتهم ، ويجعل مشقة الوالد فى ذلك كمشقة المجاهد فى سبيل الله ، ويجعل من بين الذنوب ذنوبا لا يغفرها إلا النصَب من أجل العيال .

والإسلام لا يدعو إلى الكسل ، ولا يرضى عن الفقر ، ولا يشجع على الرهبانية والعزلة الميتة ، بل يدعو إلى السعى والكسب والربح والاقتصاد والادخار للمستقبل . والقرآن يقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . ويقول : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

والإسلام يدعو أهله إلى أن يكونوا فى عزة من أمرهم ، وكثرة من عددهم ، وأن يكون لهم جيش مهاب ، لا ليبغى أو يسطو ، بل ليحفظ كيان الأمة الإسلامية ، ويصون عزتها ، ويصد عنها هجوم أعدائها . والقرآن يقول فى ذلك : ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ) . ومهما اخترع الإنسان من

وسائل الحرب والتدمير والهجوم فستظل العبرة فى الجيوش بكثرة أفرادها ، لأن هذه الكثرة هى الأساس فى تكييف الوضع خلال الحروب . . .

والإسلام يحترم النفس الإنسانية ويعلى شأنها ، ويعد الاعتداء عليها أكبر جريمة وقع فيها الإنسان ، ويتوعد متلفها بأقسى ألوان العذاب الخالد ، والرسول الكريم فى بعض حواره يذكر أن نفس المسلم عند الله أعلى مكانا من بيت الله الحرام ، وهو أول بيت وضع للناس ، وكان ما حوله مباركا . .

ثم إن الإسلام لا يريد من أتباعه أن يعيشوا فى الكون نمالا أو أقزاما ، أو يحيوا حياة رخيصة هينة ، بل يريدهم عمالقة فى العالم ، سادة بين المخلوقات ، يأكلون أطيب الطعام ، ويشربون أهنأ الشراب ، ويلبسون أحسن الثياب ، ويرتفعون فى مستواهم الروحى . ولم لا يكون الأمر كذلك والله قد جعل هذا الإنسان خليفته فى هذه الأرض ؟!

## سند لأنصار التحديد

على ضوء هذه الأصول نبحث حكم تحديد النسل فى الإسلام ، وأنا أسارع فأطمئن المتحمسين الهاتفين بتحديد النسل على أن أغلب الأئمة فى الإسلام مجمعون على جواز المحاولة لمنع الحمل ( عند الحاجة ) كما يعبر بعضهم ، أو عند ( خوف الضرر ) كما يعبر البعض الآخر ، وكذلك يجوز فى مذهب الحنفية اتخاذ الوسائل التى يشير بها الأطباء العدول لتجنب كثرة النسل ، أو لإيجاد فترة بين الحمل والحمل ، عند وجود الداعى الشرعى لذلك ، كالخوف من الحرج والمشقة ، أو المرض ، أو تغير صحة المرأة . .

## حجة لمعارضى التحديد

ثم أسارع أيضا فأطمئن الخائفين من سوء استغلال التحديد فى النسل ، المنادين بإطلاقه وعدم التدخل فيه ، فأقول : إن الإسلام الحنيف لا يبيح تحديد النسل — أو الحيلولة دون تكاثره بمعنى أدق — لمجرد الأهواء الباطلة ، كحب الفراغ ، أو التخلص من مسئولية التربية والإعداد ، أو ميل النساء إلى الرشاقة والرياضة والسفر والألعاب ، وعدم التقيد بقيود البيت الدائمة ؛ لأن هذا معناه نكبة الوطن وخراب العالم ، كما أن الإسلام لا ينظر بعين الرضا إلى التخلص من النسل بعد تكونه فى الرحم واتخاذ سبيله إلى الوجود .

## وسائل التحديد الهامة

وقد يكون من الخير أن نتساءل ليزداد الموضوع وضوحا فنقول : ما هى وسائل التحديد المراد ؟ . .

لعل أهم هذه الوسائل أربعة طرق هى : العزوبة ، والعزل عند الوقاع ، والإجهاض ، والوأد . . . فلنتناول كل وسيلة من هذه الوسائل ، لنعرف موقف الدين منها ، ومن وراء ذلك نعرف موقف الدين من ذلك التحديد . . .

## الوسيلة الأولى : العزوبة

أما العزوبة وهى عدم الزواج فرهبانية لا يحبها الإسلام ولا يألفها ، وفرار من تحمل التبعات لا تحمده الروح الدينية الواثقة ، والإسلام ينظر بعين السخط والكراهية إلى العزوبة ، ويحرض على الزواج بأجلى بيان ، وحسبنا من المصدر الأول للتشريع وهو القرآن الكريم أن نسمعه يقول : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . ويقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويقول فى وصف الرسل ومدحهم وهم النماذج البشرية العليا التى بها نقتدى : «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » . ويقول على لسان عباد الرحمن وهم يدعونه : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » .

ونستطيع أن ننتقل من القرآن الكريم إلى المصدر الثانى للتشريع ، وهو الحديث النبوى الشريف ، فنجد فيضاً غامراً — لا ، بل باهراً — من الأحاديث الكريمة التى تحض على الزواج وتدعو إليه ، وحسبنا قطرات تدل على المحيط :

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من رغب عن سنتى فليس منى ، وإن من سنتى النكاح ، فمن أحبنى فليستنّ بسنتى » . ويقول : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة ( أى الزواج وتكاليفه ) فليتزوج » . ويقول : « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة » .

ويمكن أن ننتقل من الأحاديث إلى الآثار لنجد عمر بن الخطاب يقول : «لا يمنع من الزواج إلا عجز أو فجور» . ويقول عبد الله بن عباس : « لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج» . ويقول عبد الله بن مسعود : « لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا » . وقال قائل لإبراهيم ابن أدهم العابد المتصوف : طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة . فأجابه : « لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه » . .

نعم قد يجوز ترك الزواج فى أحوال قليلة لأسباب قوية معقولة كالعجز عن الكسب أو القصور عن القيام بحقوق الزوجية الخاصة والعامة ، أو تأكد إلهاء الزواج عن العبادة ، إذا كان الشخص بدون الزواج عفيفا مستقيما . وممن تعرض للحديث عن مثل هذه الأعذار الإمام الغزالى فى الجزء الثانى من كتابه الإحياء .

ومن الواجب أن نتذكر هنا أن العزوبة منتشرة فى بلادنا ، وأن أغلبية الشباب تعرض عن الزواج ، وأن كثيرات من بناتنا عوانس فى بيوتهن ، ويرجع كل ذلك لأسباب كثيرة متعددة ، ليس من منهاجنا هنا أن نفسح المجال لبسطها أو تعدادها .

## الوسيلة الثانية : العزل

تأتى بعد ذلك الوسيلة الثانية من الوسائل الهامة لتقليل النسل أو تحديده بتعبير آخر ، تلك الوسيلة هى العزل ، والعزل كما فى كتاب ( النهاية فى غريب الحديث ) لابن الأثير : هو عزل الماء عن النساء حذر الحمل ، يقال عزل الشىء يعزله عزلا إذا نحاه وصرفه . . . أو بمعنى أوضح : العزل هو أن يجامع الرجل امرأته حتى إذا ثارت شهوته ، وتهيأ لقذف ماء الحياة والتناسل ( وهو المادة المنوية ) من قُبله فى رحم المرأة أسرع فنزع عضوه التناسلى من فرج المرأة ، وقذف ماءه خارجه ، حتى لا يصل هذا الماء إلى رحم المرأة فيختلط بمائها فيتكون من ذلك الجنين ، وبهذا النزع يتجنب الرجل مع المرأة أسباب التقاء النطفتين فلا يكون هناك حمل ولا جنين ، والصلة بين المعنى اللغوى الأصلى لكلمة العزل ومعناها الاصطلاحى هنا ظاهرة واضحة ، لأن فى كلا المعنيين إبعاداً وتنحية وصرفا .

هذا هو العزل بمعناه اللغوى ومعناه الاصطلاحى ، وإنما يهمنا هنا من ناحية

الحكم الدينى العزل الاصطلاحى الذى يكون بين الزوجين ، فما موقف الإسلام منه ؟... نسارع أولا فنقول: إن العزل طريق غير طبيعى، يلجأ الرجل إليه عند الحاجة ويعرض نفسه وزوجته معه لبعض المضايقات وفوات بعض اللذة أو أكثرها حسب اختلاف الطبائع ؛ ولكننا رغم هذا نجد فى سنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه أحاديث كثيرة تشير إلى جواز العزل وعدم محاربته ، وحسبنا أن نسوق هنا هذه الطائفة الكريمة من الأحاديث :

فى الصحيحين عن جابر قال : كنا نعزل على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل . وفى رواية : كنا نعزل ، فبلغ ذلك نبى الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا .

وفى صحيح مسلم عن جابر أيضا أن رجلا أتى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، إن لى جارية هى خادمتنا وساقيتنا فى النخل ، وأنا أطوف عليها ( أى أجامعها ) وأكره أن تحمل ، فقال عليه السلام : أعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها . . . فلبث الرجل ما شاء الله ، ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حملت . فقال : قد قلت سيأتيها ما قدر لها .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد قال : أصبنا سبياً فكنا نعزل ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « وإنكم لتفعلون ؟ ( ثلاثا ) ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة » .

وفى السنن أن رجلا قال : يا رسول الله ، إن لى جارية وأنا أعزل عنها ، وأنا أكره أن تحمل ، وأنا أريد ما يريد الرجال ، وإن اليهود تحدث أن العزل الموؤدة الصغرى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كذبت اليهود ، لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه » .

وروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن عندى جارية وأنا أعزل عنها . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن ذلك لا يمنع شيئا أراده الله » . فجاء الرجل فقال : يا رسول الله ، إن الجارية التى كنت ذكرتها لك حملت . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا عبد الله ورسوله » .

وفى مسند أحمد وسنن ابن ماجه من حديث عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم

نهى أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها ( ووجه الدلالة فى هذا الحديث أن العزل يباح إذا أذنت الحرة ، وقد لا تأذن ) .

وفى صحيح مسلم أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، إنى أعزل عن امرأتى . فقال صلى الله عليه وسلم : لم تفعل ذلك ؟ . فقال : أشفق على ولدها . — أو قال على أولادها — فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كان ضاراً لضر فارس والروم » .

هذه كما ترى مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة ، وكلها تشير إلى جواز العزل وعدم تحريمه صراحة ، ولو لم يكن بجوارها ما يتعارض معها لسهل الأمر وانتهينا إلى القول بأن العزل مباح فى الإسلام بلا اعتراض ، ولكننا نجد فى صحيح مسلم حديثاً نبوياً كريماً من درجة الأحاديث السابقة فى الصحة والقوة ، وهذا الحديث يشير إلى كراهية العزل وإلى التنفير منه وتقبيح أمره ، ففى صحيح مسلم أن الرسول سئل عن العزل فقال : ذلك الوأد الخفى . . . وقد قالوا إن هذا الحديث يصح أن يكون ناسخاً للأحاديث السابقة المبيحة ، لأن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وهذا الحديث المانع ناقل عن ذلك الأصل ، ولكن هذا القول يحتاج إلى تعيين الزمن الذى قيل فيه هذا الحديث ، ليثبت له التأخر عن الأحاديث السابقة ، فيصح به النسخ ! .

## رأى الغزالى وابن القيم

ولعله من الخير هنا أن نلخص رأى الإمامين الغزالى وابن القيم فى موضوع العزل ، ليزداد الأمر وضوحاً وتأكداً ، وهذا التلخيص المركز قد لا يغنى الباحث الطلعة عن الرجوع إلى نفس الفصلين اللذين عقدهما ذان الإمامان الجليلان ، فيحسن لمن أراد التوسع أن يطالع نفس الفصلين .

## ملخص رأى الإمام الغزالى

ولنبدأ بتلخيص رأى حجة الإسلام الإمام الغزالى ( عن كتابه إحياء علوم الدين — الجزء الثانى » :

. اختلف العلماء فى العزل ؛ فمنهم من أباحه مطلقاً ، ومنهم من حرمه ومنعه مطلقاً ،

ومنهم من أباحه برضا المرأة الحرة ، ومنهم من قال يباح فى المملوكة دون الحرة ، والصحيح عندنا أن ذلك مباح ، وأما كراهيته فلترك الأفضل ، وليس ذلك كالإجهاض والوأد ، لأنهما جناية على موجود حاصل .

وأسباب العزل خمسة : حفظ الأمة المملوكة من العتق ، وهذا ليس بمنهى عنه . أو حفظ جمال المرأة وصونها من خطر الطلق ، وهذا ليس بمنهى عنه . أو الخوف من كثرة الحرج بكثرة الأولاد ، وهـذا غير منهى عنه . وإن كان الأفضل الثقة بعون الله ورزقه . أو الخوف من ذرية البنات لخشية المعرة منهن ، وهذه نية فاسدة يأثم صاحبها . أو امتناع المرأة لمجرد النظافة والتعزز ، وهذا إثم كبير .

وردّ الغزالى بعد هذا الأدلة المعارضة لرأيه ، فذكر الحديث : « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » وقال : أى ليس موافقاً لطريقتنا وهى فعل الأفضل ، وذكر الحديث الذى يصف العزل بأنه الوأد الخفى وقال : إنه معارَض بأحاديث كثيرة تبيح العزل ، وبين أنه لا يكون وأداً إلا إذا مر الجنين بالأطوار السبعة التى يتكون فيها ولدا . . .

## ملخص رأى الإمام ابن القيم

وهذا ملخص رأى الإمام العظيم ابن القيم ( عن كتابه المشهور زاد المعاد — الجزء الرابع ) :

ذكر جملة الأحاديث الصحيحة التى تفيد إباحة العزل ، ثم ذكر فى نهايتها الحديث الذى يشترط رضا المرأة فى العزل ، وهو : لا يعزل عن الحرة إلا بإذنها . ثم قال ما نصه : « فهذه الأحاديث صريحة فى جواز العزل ، وقد رويت الرخصة فيه عن عشرة من الصحابة : علىّ وسعد بن أبى وقاص وأبى أيوب وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن على وخباب بن الأرتّ وأبى سعيد الخدرى وابن مسعود رضى الله عنهم ، وهذا هو الصحيح . وحرمه جماعة منهم أبو محمد بن حزم وغيره ، وفرقت طائفة بين أن تأذن الحرة فيباح ، أولا تأذن فيحرم ، وإن كانت زوجته أمة أبيح بإذن سيدها ولم يبح بدون إذنه ، وهـذا منصوص أحمد رحمه الله ، ومن أصحابه من قال :

لا يباح بحال ، ومنهم من قال : يباح بكل حال ، ومنهم من قال : يباح بإذن الزوجة حرة أو أمة ، ولا يباح بدون إذنها حرة كانت أو أمة » .

ثم بين أن من أباح احتج بالأحاديث الناصة على الإباحة ، ومن منع احتج بقول الرسول عن العزل : « ذلك الوأد الخفى » ، وبأن العزل فيه قطع النسل وسوء العشرة وقطع اللذة عند داعيها ، وبقول ابن عمر : لو علمت أن أحداً من ولدى يعزل لنكلته ، وبكراهة علىّ للعزل ، وقول أبى أمامة : ما كنت أرى مسلماً يفعله ! .

ثم أخذ يبين أن هذا كله لا يعارض أحاديث الإباحة فإنها كثيرة صحيحة ، وروى عن الشافعى عدم البأس فى العزل ، وأن إباحته مذهب مالك وأهل الكوفة وجمهور أهل العلم .

ثم بين معنى الموءودة الصغرى فنقل قول على : « لا تكون موءودة حتى تمر عليها التارات السبع : حتى تكون سلالة من طين ، ثم تكون نطفة ، ثم تكون علقة ، ثم تكون مضغة ، ثم تكون عظاما ، ثم تكون لحما ، ثم تكون خلقا آخر » ، ولما سمع عمر ذلك من على رضى به ، وقال له : صدقت أطال الله بقاءك ! .

ونخلص من هذا كله بأن أدلة الإباحة فى العزل أكثر وأقوى من أدلة المنع ، وأن القائلين بجوازه أكثر من القائلين بحرمته ، ومن الممكن التوفيق بين الطائفتين ، بأن يقال فى اختصار : إن العزل يجوز عند السبب القوى والعذر الشرعى ، ولا يجوز لمجرد الهوى أو السبب التافه .

ويجب أن نتذكر أيضا أن الناس يعزلون ، ويحولون بشتى الطرق بين ماء التناسل ورحم المرأة حينما يرغبون ، فكثير منهم يعزلون بطريق النزع عند ثوران الشهوة والتهيؤ للقذف ، وبعضهم بوضع حائل رقيق فوق عضو التناسل ، وبعضهم بأوضاع خاصة عند الوقاع يبتعد فيها ماء التناسل عن مستقره الداخلى ، وبعضهم باستعمال دواء مبطل قبيل الجماع أو عقبه مباشرة ، ولهم فى ذلك حيل كثيرة يتناقلونها ويتحدثون بها ، منها السهل اليسير ، ومنها الصعب العسير .

## الوسيلة الثالثة : الإجهاض

ننتقل بعد ذلك إلى الوسيلة الثالثة من وسائل التحديد المعروفة وهى الإجهاض ، والإجهاض هو إفساد الحمل وإسقاطه قبل تخلق الجنين أو بعده ، أو قل : قبل النفخ أو بعده ، والأصل فى المعنى الاستعمال اللغوى ، فاللغة تقول : أجهضت الناقة أى أسقطت حملها ، والجهيض الولد السقط ، أو ما تم خلقه ونفخ فيه روحه من غير أن يعيش .

ونحن لا ننظر إلى المسألة هنا من ناحية القانون الوضعى ، وعقابه على الإجهاض فى حالات ، وعفوه فى حالات أخرى ، ولكننا ننظر إليها من ناحية الدين ، فنقول : إن الفقهاء قد اختلفوا فى إسقاط المادة من الرحم قبل نفخ الروح فيها ، أى قبل الشهر الرابع من أشهر الحمل ، وأجازه بعضهم عند وجود العذر الداعى إليه ، كأن ينقطع لبن الحامل ولها ولد رضيع يخشى عليه ولا مرضع له سواها ، وأما بعد نفخ الروح فإسقاط الجنين جناية وجريمة ، لأنه اعتداء على الحياة الإنسانية التى بناها الله ، واللعنة مكتوبة لكل من هدم ذلك البناء بغير حق ، وقد يكون من المستحسن أن نسوق هنا عبارة للامام الغزالى عن تكون الجنين وإجهاضه ، قال : « وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة فى الرحم ، وتختلط بماء المرأة ، وتستعد لقبول الحياة ، وإفساد ذلك جناية . فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أفحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشا ، ومنتهى التفاحش فى الجناية بعد الانفصال حيا » .

ومن المؤسف أن نذكر أيضا أن حوادث الإجهاض موجودة ومنتشرة فى الخفاء ، مع أن القانون يعاقب عليها ، ومع أن الدين فى نظرته العامة لا يرتاح إليها ، لأنها طريق غير طبيعى ، والناس لا يبالون ولا يتورعون ، وكل من هيأت له ظروف وظيفته أن يطلع على مساتير تلك الناحية يدرك انتشار هذه الحوادث ، فالطبيب الذى تلجأ إليه الراغبات فى الإجهاض أو اللواتى أسقطن أحمالهن يدرك هذا ، ورجل القانون الذى يتعقب ما يضبط من هذه الحوادث — وهو قليل جدا بالنسبة إلى مالا يضبط — يدرك هذا ، والعالم الذى يستفتى ليعطى إجازة فى الإجهاض أو لا يعطى يدرك هذا ، وكم نجمت عن حوادث الإجهاض متاعب وآلام تقوضت بسببها دعائم أسر وبيوت .

## الوسيلة الرابعة : الوأد

بقيت الوسيلة الرابعة والأخيرة معنا وهى الوأد ، والوأد هو قتل الأطفال ، وقد كان الوأد جريمة كبرى يرتكبها القدماء فى اسبرطة مثلا ، حينما كانوا يتخلصون من كل مولود ضعيف لا يثبت للظواهر الطبيعية القاسية . وكان العرب فى جاهليتهم يئدون البنات خشية العار والفقر ، فلما طلع الإسلام بشمسه الساطعة ، كرَّم النفس البشرية وأعلاها ، وحارب تلك الجريمة محاربة حازمة فاصلة حق أبطلها ، ونحن نقرأ فى القرآن الكريم تشنيعاً على أهل الجاهلية قوله : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » . ويقول القرآن : « وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » . ويقول : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم » . ومن الإنصاف للواقع أن نقرر أن حوادث الوأد وقتل الأطفال للتخلص منهم نادرة بالنسبة إلى الوسائل الأخرى ، فإن صرامة القانون فى العقاب ، ومن قبل ذلك الوازع الدينى المستتر رغم إهمال الدين ، ثم كراهية العرف العام لإزهاق الروح تحول دون كثرة هذه الحوادث ؛ نقول تحول دون كثرتها لأنها تقع أحيانا تخلصاً من تبعة ، أو كيداً لزوجة ، أو طمعاً فى مال ، أو انهزاماً أمام تكاليف العيش .

## هل يحتاج الإصلاح إلى التحديد ؟

نتساءل بعد هذا : هل الإصلاح الاجتماعى يحتاج اليوم ، وفى بلادنا بالذات ، إلى تحديد النسل ؟ . .

لعله من الخير ألا نتسرع بالجواب قبل أن نضع أمام أفكارنا وأبصارنا الملاحظات الهامة التالية :

أولا : ليس عندنا ازدحام فى السكان ولا تضخم فى عدد المواطنين ، وليس معنى هذا أن السكان لم يزيدوا ، بل معناه أن نسبة عدد السكان إلى مساحة أرض الوادى الخصيب لا تنتج أمامنا تضخما ، وكل الذين يتصايحون بأن فى مصر تضخما فى السكان لا يخرجون عن نوعين : النوع الأول مخادع يريد أن يشوه الحقائق وهو يعرفها ،

ويقصد من تشويهها صيداً فى ماء عكر ، أو لعباً فى ظلام ، أو تحقيقاً لهوى باطل ؛ والنوع الثانى جاهل بحقيقة الأمر ، فهو يخطىء حين يعتبر فى ازدياد السكان المساحة المزروعة المعمورة من الوطن وحدها ، وقد كان الواجب أن يُدخل فى اعتباره وتقديره كل شبر من أرض الوطن يمكن أن يزرع أو يعمر . وقد يخدعنا النظر الخاطف فى الحكم حين نرى نوعا من الازدحام بين السكان فى بعض العواصم المقصودة كالقاهرة والإسكندرية ، أو فى بعض الجهات والأقاليم كالمنوفية والقليوبية ، ولكننا حين نرمى بأبصارنا إلى بقية البلاد والقرى ، وإلى بقية الجهات كالشرقية والغربية والوجه القبلى والواحات وأنحاء الوطن العديدة المهجورة أو المهملة نجد أماكن شاسعة تتطلب سكاناً وتتطلب فالحين وزارعين وكاسبين .

ثانيا : أكثر مواردنا الطبيعية والصناعية لم نستغلها ولم نحسن استخدامها ، فالأرض الموات ( البور ) الواسعة لم نصلحها ولم نستنبتها ، والمناجم والمحاجر الكثيرة المنتشرة فى بلادنا هنا وهناك لم نكشفها ولم نستغلها ، والقوى الهائلة فى مياه النيل المتدفقة ضائعة ، والصحراء الواسعة التى يقال كذباً وزورا إنه لا يمكن الانتفاع بها نستطيع بالعزم والتدبير أن نحيلها إلى جنات ، والمواد الأولية ( الخامات ) تنادى الأيدى الكثيرة العاملة لتنشىء لها المعامل والمصانع فتخرج منها الكنوز والنفائس ، والأيدى العاطلة فى حاجة إلى من يحركها فى مختلف الأعمال وشتى المشروعات .

ومن الممكن لك أن تقول وأنت مطمئن إلى أنك لم تجاف الواقع ولم تبعد عن الحق : إن المصريين قوم أضاعوا خيرات بلادهم ، فكتبوا الذلة والفقر على أنفسهم ، وانصرفوا إلى باطل القول أو تافه المتاع ، وصدق الشاعر حين قال :

وإذا سئلتَ عن الكنانة قل لهم : هى أمة تلهو وشعب يلعبُ

ولو أن مواردنا الطبيعية والصناعية استغلت كما يجب لفاضت الخيرات التى تغمر بالنعيم ملايين وملايين ، ولما شكونا فقرا ولا كثرة سكان .

ثالثا : نحن شعب راكد نائم ، لا يحب التجول أو الهجرة ، وأمامنا جهات الهجرة فسيحة واسعة تدر على طالبها المغانم والمكاسب . . . ولا نريد هنا الجهات الخارجية ، وإن كانت الشعوب الناهضة لا تتركها دون غزوها واستثمار مواردها ، بل نريد جهات الهجرة الداخلية إلى حمانا وحرمنا ووادينا ، فأمامنا السودان تصلح مساحته

الواسعة الخصبة المهملة لهجرة الآلاف ، وأمامنا الواحات الكثيرة تتطلب من يزيد فى رياضها ومساحاتها ، ولكن ماذا تقول لشعب أخلد إلى البقعة التى عرفها من يوم ميلاده ، فلا يطيق عنها ابتعادا ولو فى سبيل الرفعة والثروة ؟ . . .

رابعا : عندنا علة العلل التى لا يكون معها إصلاح حقيق ، ولا تقدم فى المجتمع واقعى ، تلك العلة هى ما نستطيع أن نعبر عنه بنظام « الإقطاع » ، فطائفة قليلة مترفة تسيطر على أغلب العقار والثروة والموارد ، وأغلبية كادحة تشقى وتتعب ، وتذوب دمعاً وعرقاً ودماً ، ولا تحصل إلا على الحقير التافه ، ولو كان ذلك آتيا عن طريق الجد والاجتهاد من المسيطرين المترفين ، أو طريق الكسل والخمول من الفقراء المحتاجين ، لما كان هناك موطن للتنديد أو الشكوى ، ولكن ذلك نشأ عن سوء الاستغلال ، وجشع الاحتكار ، وفحش الاستبداد ، وعن سيطرة القوى على الضعيف سيطرة تستحل لنفسها أن تسرق تارة ، وأن تخدع تارة ، وأن تمتص دماء سواها تارات ، دون أن يكون هناك عدالة اجتماعية ، أو تكافؤ فى الفرص ، أو تعاون على البر والتقوى ، أو تعاطف بين الغنى والفقير . . . بل هناك طرق كثيرة من الكسب الحرام والربح الأثيم هى التى هيأت لأكثر أولئك المتخومين أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من ثراء ظنين وترف مريب . ولو أن العدالة الاجتماعية التى تتصايح باسمها منذ سنين طويلة تحققت كما يُفهم معناها لما شكونا جوعا ولا جريمة ، ولا نزوعا إلى مبادىء خطيرة أو آراء هدامة ، فأين الذين يسمعون ثم يستجيبون ؟ .

خامسا : يتحدث البعض عن كثرة النسل فى بلادنا ، فمن الذى يتحدث عنها ؟

أغلب الذين يبدئون ويعيدون فى هذا الموضوع هم من السادة سكان المدن ، والمدن ليس فيها كثرة نسل ، وأكثر هؤلاء من الأغنياء الذين لا يعجزون عن تكاليف النسل الكثير لو وُجد عندهم ، وأما الفقراء من أهل القرى والريف فهم الذين يكثر لديهم النسل كثرة غير مستغربة ، وهم لا يضيقون بهذه الكثرة ولا يريدون تحديدها ، بل إنهم يفرحون بها ، وكلما رأى الفلاح بجواره ابنا جديداً له يعاونه فى أعماله حسب أنه قد خُلق خلقا جديدا . فليت شعرى ، لماذا يتكلف الأثرياء القليلون فى النسل عناء الدعوة الحارة إلى تحديد النسل وهم لم يبتلوا به ، والذين عندهم كثرة نسل لم يوكلوا

هؤلاء الأغنياء ليدافعوا عن نسلهم ؟! . أتكون هذه هى المخادعة ، أم حب الذات ، أم محاولة حرمان الفقراء حتى من نعمة الذرية والإنسال ؟ . . .

سادسا : العزوبة منتشرة بين الشباب بشكل مؤسف ، بعضهم تثقل عليهم تكاليف الزواج المرهقة المفتعلة فيفر منها لأنه يعجز عنها ، وبعضهم لم ينشأوا نشأة مهذبة ، ففسدت أخلاقهم وانحرفت عواطفهم وشذت غرائزهم ، فانطلقوا على وجوههم كالكلاب تريد أن تلغ فى كل إناء . وهذه العزوبة المفسدة تحتاج فى علاجها إلى التشجيع على الزواج ، فكيف يتفق هذا إذن مع الدعوة إلى تحديد النسل ؟ . .

ولقد سبق أن بينا أن العزل أيضا فى الوقاع منتشر بصور مختلفة ، وأن الإجهاض منتشر أيضا بصور مختلفة ، فكأن أغلب وسائل التحديد موجودة ذائعة ، أفلا يكون من العبث ، أو من زيادة الطين بلة ، لو ظللنا مع هذه الظواهر الاجتماعية كلها ندعو إلى ذلك التحديد ؟ . .

سابعا : الرذيلة الفاشية أيها السادة ... كأنها تقوم بتحديد النسل تطوعا ، وبدلا عنكم . . إن هذه الرذيلة تضيع ملايين النطف ، وتسقط لنا آلاف الأجنة من الأرحام ، وتنشىء آلاف العلاقات الآثمة المهدرة فى نظر الدين والمجتمع ، فتقف هذه العلاقات حائلا دون شيوع الحياة الزوجية التى يكون من ورائها النسل والأولاد .

ثامنا : لقد عشنا مستعبَدين مهانين عهوداً طويلة ، ومرت علينا عشرات وعشرات من السنين لم ندخل حربا جدية ، ونحن الآن نتهيأ لاستخلاص حريتنا وتحقيق استقلالنا ؛ وهذا الاستقلال يتطلب منا قوة وعزة ، وكثرة وغلبة . والعالم اليوم على « كف شيطان » كما يعبرون . وقد تضطرنا أحداث العالم إلى دخول حرب طاحنة طويلة الأمد ، وهذه الحرب تحتاج إلى الجيش الخميس العرمرم ، وتحتاج من وراء الجيش المحارب إلى الجيش المرابط . ومن وراء الجيش المرابط إلى الجيش الاحتياطى ، ومن وراء الاحتياطى إلى الجيش المدنى الذى يعمل خلف الصفوف فى أرجاء الوطن المختلفة . فماذا يكون حالنا إذا أخذنا بنظرية تحديد النسل ، وعصفت تلك الحرب بمليونين من أبنائنا ؟ . . . وهل لنا الآن جيش كبير العدد والعدة كما فى الأمم العظيمة المعاصرة ؟ .

تاسعا : يخيل إلينا أننا فى حاجة إلى تحديد نسل الكلاب المدللة فى بلادنا ، قبل تحديد النسل البشرى عند الإنسان !! . . نعم فهؤلاء هم سادتنا وكبراؤنا قد أخذوا يقتنون الكلاب ويدللونها ، ويطعمونها أحسن الطعام ، ويلبسونها أفخم الثياب ، ويركبونها العربات ، ويخصصون لنومها السرر والحشايا ، ويضعون فى أعناقها الأطواق الذهبية أو الفضية ، بينما الآلاف المؤلفة من أبناء الوطن الضالين والصبيان المحتاجين يتضورون من الجوع ، ويئنون من المسغبة ، ويتمنون فى نفوسهم لو مسخهم الله كلابا كهذه الكلاب ، حتى يفوزوا بمثل ما فازت به تلك الكلاب !!! .

هل يعلم الناس أن فى بلادنا من يكرم الكلاب أكثر مما يكرم الآدميين ؟ ومن يحزن لفراق الكلاب كما يحزن لفراق الأعزاء ؟ . ومن يقيم لكلبته مأتما إذا ماتت ؟ ومن يقيم ضريحا رخاميا لكلبه الغالى ؟ . . . ألم يقرأ الناس فى صحفنا اليومية ذلك ؟ ألم يروا من بين المناظر المثيرة المؤسفة المنشورة فى تلك الصحف صورة تلك المرأة الثرية التى ألصقت خدها بضريح كلبتها الرخامى ، وأخذت تبكى على العزيزة الغالية ؟!!..

أفما كان أولى بهؤلاء الأثرياء الذين حرمتهم الأقدار النسل ، أو حرّموا هم على أنفسهم هذا النسل بالفرار منه ، أن يتركوا تربية الكلاب وتدليلها ، ويأخذ كل واحد منهم من أبناء الفقراء والمساكين واحداً أو اثنين لتربيته ؟ . . أظن أن ذلك واجب الدين والوطن والإنسانية فى أعناقهم ، وأظن أن هؤلاء الصبيان حين يكبرون ، ويرون الذين أحسنوا إليهم ، لن يكونوا أقل وفاء لهم من هذه الكلاب ! ! . .

## وكيف السبيل إلى التحديد ؟ !

ولنفرض جدلاً بعد هذه الملاحظات كلها أننا نحتاج إلى تحديد النسل لقلة المال وكثرة السكان وفقر الأغلبية . . . فكيف السبيل إلى هذا التحديد ؟ وكيف نفرضه على المجتمع ؟ . . . أيكون ذلك بسنّ قانون ملزم لكل فرد أن يحدد نسله ؟ . . إن ذلك يتعارض مع أقل حقوق الحرية الفردية ؟ ولنفرض أننا سنسلب الفرد هذه الحرية ، فكيف نسلبها منه ؟ . . . أندخل عليه مخدعه ليلاً لنمنعه من وقاع زوجته ؟ . أم نرغمه على أن يخصى نفسه أو يعقم زوجته ؟ . . . أم ننصب على كل زوجين حارسا يمنعهما من المعاشرة والإنسال ؟ . . . ياله من وضع مضحك غريب ! .

أيكون التحديد بتناول دواء من الأدوية ؟ . . إن الدواء — مهما كان — غير ناجح على الدوام ، ومها برع الإنسان فى الطب فستظل هناك نافذة القدر مفتوحة . ولعلنا لم ننس بعد قول الرسول عن الأمة المعزول عنها : « سيأتيها ما قدّر لها » . وقوله : « ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة » وقوله عن الحمل : « لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه » . . .

وكم من أناس حاولوا منع الحمل بالدواء والعقاقير ومختلف « الوصفات » ، ومع ذلك جاء الحمل رغم إرادة الجميع ! . . .

أيكون التحديد بتعقيم المرأة بصفة دائمة بعد ولادتها مرة أو مرتين ؟ . . . هذا أيضا ضار كل الضرر ، إذ يتعارض مع فجاءات المستقبل : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؛ إن الله عليم خبير » فقد يكون للزوجين ولدان ، ثم يحدث التعقيم ، ثم يموت الولدان . . . فماذا يصنع الوالدان حينئذ والحنين عندها طاغ إلى الذرية والولد ؟ أيعيشان على نار الحرمان ، أم يتفرقان فتتقطع العلاقات والأواصر ؟ . . على أنه قد تعقّم المرأة للحيلولة بينها وبين الحمل ، ولكن الله يريد رغم كل هذا أن تحمل بعد قليل من الزمان أو طويل فتحمل ، فماذا يكون الوضع ؟ ! . .

أيكون هذا التحديد بإلزام الرجل أن يهجر مضاجعة الزوجة لحين من الزمان ؟ . . . إن هذا يعرض المرأة لأزمات نفسية قاسية قد تنحرف بها عن الطريق المستقيم ، والرجل نفسه قد يتعرض لانحراف جنسى ، فيحاول إرضاء غريزته عن طريق غير شريف . .

يالله من مشروع خيالى عجيب ، يستعصى على التنفيذ والتطبيق ، لو فرضنا جدلا أننا نحتاج إليه الآن ! . . .

## خلاصة البحث

وخلاصة هذا البحث أن الإسلام قد يبيح محاولة التقليل من الذرية ، عند وجود الأسباب المحترمة والدواعى القوية ، دون اعتداء على الحياة الإنسانية بعد تكونها ووجودها ، ولكننا لسنا فى حاجة اليوم إلى تحديد النسل ، لأننا لا نشكو تضخما فى

السكان ، وإنما نشكو اختلالا فى الوضع الاجتماعى . ونحن نحتاج أولا وقبل كل شىء إلى العدالة الاجتماعية بمعناها الصحيح ، وفى صورتها الحقيقية الواقعية ، ونحتاج إلى استثمار جميع مواردنا الطبيعية والصناعية ، واستغلال الكنوز الكثيرة المطوية فى أرجاء بلادنا ، فلو فعلنا ذلك لما كان بنا احتياج إلى تحديد نسل . . .

* * *

وأخيرا يجب أن نتذكر أن أقصى الأمر فى تحديد النسل أنه مسألة فردية تخضع لظروف الإنسان الشخصية ، ولا يمكن أن يُفرض هذا التحديد بصفة جماعية ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

# فى صحبة المكفوفين

## المكفوفون فى الحياة

هؤلاء قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، فحيل بينهم وبين نور الحياة وضياء الكون ، وصاروا سجناء الظلام الدامس ، وآثروا فى الغالب زوايا البيوت ، أو منعطفات المعازل ، فأصبحوا رهناء محبس آخر . . ولو اقتصرت بليتهم على ذلك لاحتملوها راضين أو صابرين ، ولكن أهل الحياة جهلوا رسالتهم ، وهضموا حقوقهم ، فأخروا أولئك المكفوفين ولو كانوا أهل تقديم ، وأهملوا شئونهم ولو كانوا جديرين بالعناية والاهتمام ، وصدوهم عن احتلال أماكنهم العالية فى المجتمع إذا ما توفرت فيهم مؤهلات ذلك الاحتلال المشروع ؛ بل وتطاول السفهاء — ولا يزالون يتطاولون — على المكفوفين ، فسخروا منهم وتندروا بهم ، واتخذوهم مسلاة وتلهية ؛ ولعل هذا هو أهم الأسباب التى دفعتنا إلى تخصيص ذلك البحث عن المكفوفين ، ولسنا نريد أن تقتصر ثمرته على الفائدة العلمية التى تأتى عن طريق البحث والعرض ، بل نرجو أعمق الرجاء أن تكون صحبتنا هذه مع قرائنا للمكفوفين مدعاة إلى أن تتبدل الحال ، فيأخذ المكفوف مكانته الطبيعية فى الحياة ، يتعلم ويتقوم ، ويعمل فيحترم ، ويجاهد فيصل ، ويشارك غيره من المبصرين مشاركة الأنداد .

و « الكفيف » هو الشخص الذى ذهب بصره ، ويقال له أيضاً أعمى ، والعمى كما تحدثنا اللغة : هو ذهاب البصر وعدم الرؤية ، ويقال : عمى عليه الأمر أى التبس ، وتعامى الرجل تظاهر بأنه أعمى ، ورجل عمى القلب أى جاهل ، والأعميان الليل والجمل الهائج ، وقيل : هما السيل والجمل الهائج ؛ والعماء السحاب ، وقيل هو الذى يشبه الدخان وركب رءوس الجبال ، وفى المثل : ربما أصاب الأعمى رشده .

ويقال للأعمى أيضاً ضرير ، ويقال له أكمه ، وذلك إذا وُلد أعمى . والعمش قريب من العمى ، والفرق بينهما أن العمش هو ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها ، كأن المرئيات تستتر عنها بستور الدمع .

وبلادنا — مع أشد الأسف — أكثر بلاد الأرض عمياناً ؛ وقد تعاونت على إيجاد هذه الكثرة من المكفوفين بيننا عدة عوامل ، كل منها غول مخيف ، وشيطان رجيم ، فهناك الفقر الذى يمنع من النظافة ومن العلاج ، فينشأ من وراء ذلك العمى ؛ وهناك الجهل الذى يدفع بالجاهل إلى ارتكاب الكبائر المؤذية له فى صحته وفى عينيه على الأخص ، فيؤدى ذلك إلى العمى. وهناك المرض المتمثل فى الرمد الشائع الذائع ، وهذا الرمد له ضحايا من المكفوفين أكثر من ضحايا سواه ، وهناك القذارة التى ابتليت بها بلادنا ، فلم يصدق فى الحملة عليها فرد ، ولم تتعاون فى محاربتها جماعة ، وهذه القذارة تتطاول متجارئة على البصر ، فتصيبه ثم تقضى عليه ؛ وهناك الغبار الذى يثور فى أغلب الأوقات ، فيحمل جراثيم العمش والعمى فى عجلة وإسراع . ومن السهل عليك أن تلاحظ عند مراجعة هذه الأسباب مجتمعة أن أغلبها — إن لم يكن جميعها — تتحمل إصرَه وتبعته الجماعةُ والدولة ، أكثر مما يتحمله الفرد الضعيف ؛ وذلك لأنها أسباب عامة طامة ، ولا طاقة للفرد بالوقوف فى وجهها ، وإنما ينهض بذلك المجموع ، ومن تلك الملاحظة نستطيع أن ندرك فى سهولة عظم المسئولية التى تتحملها الجماعة فى كثرة المكفوفين ببلادنا العزيزة ! .

وعلى الرغم من أننا أكثر بلدان الأرض عمياناً ، فإننا أشد الناس إهمالا لشئون المكفوفين ، وأكثر الخلق تفريطاً فى حقوقهم ، مع أن الواجب أن يكون الأمر بالعكس ، فما دمنا قد كثر فينا المكفوفون كثرة لا مثيل لها فى الأقطار الأخرى ، فقد كان لزاماً علينا أن نخصص جهوداً كبرى لنواجه هذه الكثرة بما ينبغى لها ، أو ما يجب من رعاية واهتمام ، ولكن هكذا كان الوضع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا زلنا بلاد العجائب والغرائب ، وإن كثرت منا الدعاوات . .

ولو أنك ألقيت نظرة على صنيع الأمم فى ميداننا هذا لوجدت المكفوفين فى الأمم الناهضة الواثبة أناساً عاملين مؤثرين ، متساوين مع الآخرين فى الحقوق وأغلب الواجبات ، فللمكفوفين هناك إنتاجهم ونشاطهم ، ومدارسهم ومعاهدهم ، وصحافتهم وكتبهم ، وآثارهم الصناعية والفكرية ؛ ولكنهم بيننا كالمنبوذين ، يعيشون على هامش الحياة ، وفى أبعد زاوية من زوايا المجتمع ، وبذلك تضيع عبقريات ، وتختفى كنوز رائعة بإهمال الدولة لأولئك الناس ! . .

## السخرية بالأعمى

وليت أمرنا اقتصر مع إخواننا المكفوفين على النبذ والإهمال ، إذن لخف الأمر وهان ؛ وفى الشر خيار كما يقولون ، ولكن شاعت فينا السخرية بالأعمى ، وألفنا اتخاذ المكفوف موطنا للاستهزاء ، وذلك استخفاف بذىء بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، وكأنما الساخر من صاحب العاهة ، أو الهازىء ممن نالته آفة ، يريد أن يبدو فى صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، وبهذا يكون محطا لنقمة العزيز الجبار ، مستحقا للعنة وسوء القرار .

وطالما شاهدنا ذلك العتل الأثيم الذى يؤنب رجلا مكفوف البصر على خطأ ارتكبه ، وسمعناه يقول له ثائراً وساخراً : « لالوم عليك فإنك أعمى » . . . وكأنما جمع الرجل فى كلة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة لحطمته ، وكثيراً ماتسمع من لاخلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين : « حقا إن كل ذى عاهة جبار » . إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء ! .

إن هذا أولا سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله لجعل الساخر مكان المسخور منه ، فذلك إذن سابقُ القضاء وحكيم القدر ؛ والسخرية مما سبق فى علم الله ، وجرى بحكمته وهداه ، محاربة له ، ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد . . . وإن كان المكفوف قد فقد بصره فى حادث أو جهاد ، أو كسب رزق ، أو تحصيل علم ، فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والاقتباس من نوره الذى أشرقت له الظلمات[1] ؛ ولقد روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلوات الله عليه عن جبريل عن ربه قال : ياجبريل ، ماثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه ( أى عينيه ) إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى . . . قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم . . . ( وذلك اشتياقا منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهى نهاية النعيم فى جنات الخلود ) . وفى رواية : إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة .

---

(١) ذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف أن الأعمى يرى ملائكة ربه عند قبض روحه .

وحتى لو فقد الكفيف بصره فى معصية لكان مستحقا للرحمة والرثاء ، بدل التطاول والاستهزاء ، فرب معصية أورثت ذلا وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، ورأفتك بالمفرّط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم ، وأماسخريتك منه فتحريض له على العناد ، والإبعاد فى مهاوى الفساد ، ولقد شرب رجل الخمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فضربوه حدا وتأديبا ، فقال له بعض الصحابة : أخزاك الله ! . فغضب الرسول من ذلك وهتف : لاتقولوا هذا ، لاتعينوا الشيطان عليه ! .

وكثيراً مايكون الكفيف البصر المزدرَى فى أعين الناس كريما عند الله ، رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لتفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ؛ فها هو ذا الصحابى الجليل عمرو ابن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش[1] ؛ وهدايتهم إلى الله ، فلايجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بهذا الكفيف الساعى ، فيمهله قليلا ، فينزل الله سورةً فى كتابه ، يعاتب فيها نبيه ، ويقول له عز من قائل معرّضا ومواريا : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى ، أو يذّكر فتنفعه الذكرى ، أمامن استغنى فأنت له تصدى ، وماعليك أن لايزكى ، وأمامن جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؛ كلا إنها تذكرة » ! . . .

ولايصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » فى صراحة وجهر ، كأنه يريد أن يقول : إن هذا الوصف الذى قوبل صاحبه بالإهمال أو الإمهال ، كان هو نفسه جديراً بأن يقابَل بالرحمة والاحتفال ؛ وصلوات الله وسلامه على مَن أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمما لمكارم الأخلاق ؛ ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به ، وقال له : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، هل لك حاجة ؟ . . . وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات ، مع أنه كفيف ، لأن العبرة بجمال النفوس ، وطهارة القلوب ، وسعة العقول . . .

ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها مدينة خربتها غارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان فى وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل فى كل بيت قدم

---

(١) من أمثال عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة .

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظنا كريما جال بخاطرى عن تصرفه ؛ فقال : لقد لمحت كلمة ( ضرير ) فى البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن يجرح إحساس فلان فتخطيته ! . . . فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق يسرى بين الجميع ! .

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان الغيور ، وبقاءه فى الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عينيه ، مما يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازى ، ومشاهدة عديد من المآسى ، فهذا زمان تترامى صوره وحوادثه أقذاء فى عيون الناظرين ، فتعشيها وتدميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه ، فلا يرى فيها من أناسها مَن يستحق التطلع إليه أو الاعتماد عليه ، فيهتف :

ما أكثر الناس ؛ لا ، بل ما أقلهم  الله يعلم أنى لم أقل فَنَدا[1]
إنى لأفتح عينى حين أفتحها  على كثير ، ولكن لا أرى أحدا !

فليت شعرى ، كيف لو تأخر الزمن بشاعرنا ، حتى أدرك زماننا نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدها ، لنستريح من خزى ما نرى ونشاهد ؟ ! .

ألا إن سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ؛ والتذكير بالعورات ، أو التندر بالعاهات ، ليس من طبع الرفيع النبيل ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه » . والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمارة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء أو الاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه — لحكمة يعلمها ولا نعلمها — بعلة مزمنة أو عاهة دائمة ؛ وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوما بالأجسام والأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال . . .

على أننا حين تنبسط أمامنا صفحات البحث فى محنة المكفوفين ، سنرى أن كف البصر ليس عاهة تقبل الهزء والسخرية ، وليس نقصا يعاب عليه صاحبه ، وليس حائلا يحول بينه وبين مراقى المجد وذُرا الرفعة ، وسنجد من شواهد التاريخ وسوانح الحوادث ومنطق العقل والتفكير أن المكفوفين كانوا عباقرة فى القديم ، وهم أهل لأن يكونوا عباقرة فى الحديث ، لو استقام أمامهم الطريق ! . .

---

(١) الفند : الكذب والخطأ فى القول والرأى .

وقديما كان السلف يرون الضرير جديراً بالرحمة والمعاونة ، لأنه فقد جانبا عزيزا من جسمه ، فيجب أن يعامل معاملة تخفف عليه ماساقه الله إليه :

قال ابن عساكر : قال عطاء بن أبي رباح : دخل حسان على عائشة رضى الله عنهما بعد ما عمى ، فوضعت له وسادة ، فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : أتجلسينه على وسادة وقد قال ما قال ؟ ( يقصد حادث الإفك ) . . . فقالت : إنه كان يجيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشفي صدره من أعدائه ؛ وقد عمى ، وإني لأرجو ألا يعذّب فى الآخرة ! ! . .

وكان الشيخ أبو بكر الضرير فى جنازة ، فسمع صبيان الميت يبكون ويقولون : من لنا بعدك يا أبت ؟ . . فقال أبو بكر : الذى كان لأبى بكر الضرير ! . . وذلك لأن أباه كان فقيرا ، وله أخت أسنُّ منه ، فلما أحس والداه بقرب موتهما جعلا يبكيان خوفا عليه ، فحزن لذلك حين سمعهما ، فأصبح وتوجه إلى المكتب كعادته ، فجاء غلام للخليفة فقال للمعلم : سيدتى تقول لك قد أقبل رمضان ، وأريد صبيا حسن القراءة والصوت ليصلى بنا التراويح . . . فأمر المعلمُ أبا بكر بالذهاب ، فلما دخل سلم واستفتح قارئا ، فبكت السيدة ، واسترسل أبو بكر فى القراءة ، فزاد بكاؤها ، وقالت : ما سمعت قط مثل هذه التلاوة . . فرق قلبه وبكى ، فسألته فقص عليها أمره ، فأعطته ألف دينار ليتجر بها أبوه ويجهز أخته ، وأمرت له بكسوة وبغلة مسرجة بسرج محلي ، وأجرت عليه ثلاثين دينارا كل شهر . . .

نعم صدق أبو بكر : يكون للصبية الله الذى كان لأبى بكر الضرير ! . .

## المكفوفون فى صفحات التاريخ

حينما نستنبىء التاريخ نجد أنه قد ضم فى صفحاته أنباء كثيرين من كبار المكفوفين ، الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز ، ويستوى فى ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب ، فنحن نجد فى الأنبياء مكفوفين ، مثل إسحق ويعقوب وشعيب عليهم السلام . نعم قد وقع خلاف فى جواز العمى على الأنبياء ، فمنعه بعضهم لأن مقام النبوة أشرف من ذلك ، ولأنه لم يرد نص قطعى الدلالة بعمى إسحق وشعيب ، ويقول البعض الآخر :

فكيف بقول الله عن يعقوب : « وابيضت عيناه من الحزن » وقوله عنه : « فارتد بصيرا » ؟. إن هذا يفيد سبق العمى ، ولا ينفع التأويل بأن قوله : « ابيضت عيناه » كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع .

ومن أشراف العرب وعظمائهم قبل الإسلام مكفوفون ، منهم عبد المطلب بن هاشم ، والحكم بن العاص ، وزهرة بن كلاب ، وكلاب بن مرة ، ومطعم بن عدى ، وغيرهؤلاء .

ومن كبار الصحابة فى الإسلام مكفوفون ، نذكر منهم أباقحافة والد أبى بكر الصديق ، وكعب بن مالك الأنصارى ، وقتادة بن النعمان ، والبراء بن عازب ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبدالله بن الأرقم ، وعمرو بن أم مكتوم ، ومالك بن ربيعة ، ومخرمة بن نوفل ، وعبدالله ابن عباس ؛ وتراجم هؤلاء مبسوطة فى مختلف المصادر القديمة والحديثة ، وهى تفيض بالمآثر والمفاخر .

ومن كبار التابعين مكفوفين مثل عطاء بن أبى رباح ، وأبى هلال الراسبى ، وقتادة بن دعامة ، وأبى عبد الرحمن السلمى ؛ وهؤلاء معارف فى تاريخ الإسلام ، وليسوا بنكرات !.

ومن كبار الأئمة والفقهاء والعلماء مكفوفون ، وحسبك أن تتذكر هنا هذه الأسماء الخالدة : الشاطبى ، الترمذى ، النيسابورى ، العكبرى ، الشنترى ، أبو زكريا البغدادى .

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون ، حسبنا منهم هنا علمان لايخفيان على ناظر ، وهما أبو العلاء المعرى ، وبشار بن برد .

وفى التاريخ القريب نجد كثيراً من الأزهريين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين ، مثل يوسف الدجوى وإبراهيم الإبيارى ومحمد المعداوى ومحمد حسنين البولاقى ( والد المرحوم أحمد حسنين باشا ) وأحمد الزين . ومن الأزهريين المعاصرين النابهين نجد مكفوفين ، فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذى لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ، ولاعن الإنتاج الأدبى الهائل ، ولا عن مركز الوزارة نفسه . .

وهذا هو الشيخ الصاوى شعلان يعد مثلا من أمثلة نبوغ المكفوفين . فهو قد أتم دراسته الأزهرية ، ثم برع فى دراسته الجامعية ، ثم مهر عدة لغات ، وهو يجيد الشعر والنثر ، خطابة وكتابة ، وهذا أخونا الأستاذ محمد العلائى ، كان زميلا لنا فى الدراسة

الأزهرية ، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف ، فأتم دراسته بها ، ثم سافر إلى انجلترا . يتلقى العلم فى معاهدها ، ولا يزال هناك يتابع خطواته الموفقة فى سبيل الحصول على درجاته العلمية الفائقة .

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الأسماء ، بعد أن نظمناها ، وقد كانت مبثوثة متفرقة فى شتى المصادر ، أن نقول إن هؤلاء جميعاً وُلدوا مكفوفين ، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر ، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك ، فبعضهم وُلد أعمى ، وبعضهم كف بصره صغيراً ، وبعضهم أصابه العمى كبيراً ، ولكنهم على أية حال يُعدون فى ثبت المكفوفين .

## كف البصر ليس نقيصة

وكف البصر كما نريد أن نؤكد فى الأذهان ليس إلا نقصاً حسياً فى ناحية من نواحى الجسم ، ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه ، لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه عنها مثلها أو خيراً منها ، ومن هنا نرى الكفيف لا يعوقه كف بصره عن القيام بواجبه فى حياته ، لأنه يكون عادة حاد اللمس والسمع والنطق والفهم ؛ ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة بلمسها ، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع ؛ ومن حدة سمعه أنه يسمع الهمس البعيد والنجوى الخفية ؛ ومن حدة نطقه أنه يكون جهير الصوت يُسمع الجم الغفير ، ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ ، ويقرع الأسماع بنبراته ، ومن هنا قال إبراهيم ابن هانىء : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت » ؛ ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك ، وأعجل فى التحصيل ، وأدق فى التمييز العقلى من مثله البصير ، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون فى الخياطة والموسيقى ولعب الشطرنج والخطابة ، وغير ذلك من دقائق الأعمال ، كما قد يمر بنا تبيانه فى مستقبل الكلام .

ولقد قال صلاح الدين بن أيبك الصفدى : « قلّ أن وُجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى ( ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال ) : « والسبب الذى أراه فى ذلك

أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه[1] ، ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكر ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفى المثل : أحفظ من العميان ؛ أورده الميدانى فى أمثاله » .

ولا يحسبن أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم ، بل لعلهم أسبق من سواهم فى الوقوف عليه والتنويه به ؛ قال رجل للقاسم بن محمد الضرير : لقد سُلبتَ أحسن وجهك ، فقال : صدقت ، غير أنى مُنعت النظر إلى ما يلهى ، وعوضت الفكرة فيما يجدى . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، بعد أن كف بصره :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نور
قلبى ذكى ، وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صارم كالسيف مأمور

وقال الخريمى الضرير :

فإن تك عينى خبا نورها ... فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبى ، ولكنما ... أرى نور عينى لقلبى سعى

وما أبرعه من تعبير ، وما أدقه من معنى ، حيث قال إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته ، فكان ذلك من الله خير تعويض ! ...

وقال أبو على الأعمى :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ... ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ... ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يُذهب الله من عينى نورهما ... فإن قلبى بصير ما به ضرر
أرى بقلبى دنيـــاى وآخرتى ... والقلب يدرك مالا يدرك البصر

ومما يزكى هذه البصيرة فى الأعمى ما جاء على لسان النبوة فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى ، وهى فى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة كانوا فى بنى إسرائيل — أبرص وأقرع وأعمى — فأراد الله أن يبتليهم

---

(١) هكذا بالأصل .

فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرصَ فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه قذره ، وأُعطى لونا حسنا وجلداً حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ؛ فأعطى ناقة عشراء . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرعَ فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس . قال : فمسحه فذهب عنه ، وأُعطى شعراً حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؛ فأعطى بقرة حاملا ، فقال : بارك الله لك فيها : قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس . قال : فمسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ؛ فأعطى شاة والداً ، فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال — بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال ( الملَك ) له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنتَ كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى . فقال : قد كنتُ أعمى فرد الله إلىّ بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله . فقال : أمسكْ عليك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبيك ! . . .

أرأيت كيف أجدى المعروف فى المكفوف ؟ وكيف شكر أنعم الله حين جاءته ؟ وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قرينيه ، والفائز بالخير بينما خسره الآخران ؟ . . أليس فى ذلك إيحاء من طرف دقيق خفى بأن المكفوف يستحق التكريم ، لأنه لا يضيع عنده المعروف ؟ . .

* * *

والمكفوف من الناحية الشرعية لا يتأخر كثيراً عن البصير ، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسى ، فالأعمى من ناحية الشرع يلى النكاح ، ويكاتب ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويجتهد فى الأوقات والأوانى ، ويبيع ويشترى ، ويحل له الصيد بالكلب والرمى ، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كُره ، ويصح أن يكون وصيا ، وتصح منه المساقاة ، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائدا ، ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائداً .

واختلف القدماء فى رؤية الأعمى للمنامات ، فقال بعضهم : يرى . وقال بعضهم : لا يرى . والذى يقتضيه المقام هو التفصيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إبصار ، وبعد تمييزه للأشياء ، فإنه يستطيع أن يرى منامات ، وإلا فلا ، وليس عدم الرؤية للأكمه بمانعته من أن يحلم أحلاما سمعية أو كلامية ، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم .

## حديث القرآن عن العمى

يخطىء بعض الناس حين يظن أن القرآن الكريم قد شوّه صورة العمى ، أوقبّح منظر الأعمى ، لأنه أكثر من ذكر العمى والأعمى فى مواطن الذم والسوء ؛ وهذا ظن قد يساعده الشكل والمظهر ، ولكن الأمر يتبدل حين النظر الدقيق والبحث العميق. وقد تتبعتُ الآيات الكريمة التى وردت فيها مادة « العمى » ثم بحثتها ، ، فلاحت لى فيها سمة غالبة ، هذه السمة هى أن القرآن لا يريد بمادة « العمى » فى أكثر استعمالاته كفّ البصر وزوال الرؤية من العين ، ولكنه يريد بها ضلال العقل وسفه التفكير وخطل الرأى . ولنستعرض الآن طائفة من تلك الآيات لنتبين فيها ذلك :

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة واصفاً شأن المنافقين : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » وهؤلاء المنافقون مبصرون حسا ، ولكن القرآن أراد أن يهم عمى عن الحق وضلالا عن الهدى ، فما أراد القرآن العمى الحسى ، بل أراد العمى المعنوى ، وهو شر ما يعاب به الإنسان . ويقول فى سورة الأنعام : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » ، والمراد أن من ضل عن

سبيل الهدى وتنكب طريق الرشاد فوبال ذلك على نفسه ، لا أنه أراد العمى الحسى ؛ إذ أن العمى الحسى لا يعاب فى شرعة السماء . ويقول فى سورة يونس : « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » والمراد به أيضاً الضالون السفهاء الذين لا يستجيبون . ويقول فى سورة الإسراء : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » والمراد الأعمى عن الحجة المنصرف عن الدليل، ولو كان له بصر زرقاء اليمامة . وفى سورة الحج يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » والآية لا تحتاج إلى تعليق ، فهى فى الباب أوضح ما يكون . ويقول فى سورة النمل : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » والمقصود مفهوم . ويقول فى سورة فصلت : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » فالمقصود بالعمى هنا هو الضلال ، لا فقدان البصر . ولذلك قوبل بالهدى ، وفى نفس السورة يقول عن القرآن : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى » أى لا يفهمونه ولا يتأثرون به ، لبلادتهم وظلمة قلوبهم وعقولهم . وفى سورة محمد يقول عن المجرمين من الكافرين والمعاندين : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » أى أضلهم عن الإيمان ، فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد ، ولذلك عقب الآية السابقة بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . ويقول فى سورة فاطر : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور » قال المفسرون : هذه أمثال ضربها الله فى حق المؤمنين والكفار ، فقوله : الأعمى والبصير أى العالم والجاهل ؛ ولا الظلمات ولا النور أى الكفر والإيمان ؛ ولا الظل ولا الحرور أى الجنة والنار ؛ وما يستوى الأحياء ولا الأموات أى المؤمنون والكافرون ! . .

من هذا نرى أن أغلب الاستعمالات التى وردت فى القرآن الكريم لمادة « العمى » أريد بها عمى القلب والعقل والروح ، لا عمى البصر ، وأن تشنيع القرآن على العميان إنما يراد به العميان عن الحق ، المحجوبون ببلادتهم وغباوتهم عن الهداية . فإذا أراد القرآن استعمال مادة « العمى » بمعناها اللغوى الأول وهو كف البصر ، لم يستعملها على وجه الذم والتقبيح ، بل يذكرها فى مواطن الرحمة أو التخفيف ، فهو مثلا يقول :

« عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى » فيذكر المكفوف هنا باللفظ الصريح ، لا ليتندر عليه ولا ليسخر منه ولا ليستهزىء به ، وإنما لكى يذكّر رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن هذا « الأعمى » كان فى حاجة إلى الرحمة والإقبال ، لا إلى الإعراض أو الإهمال ، وكأنما وضع القرآن فى كلمة « الأعمى » نفسها سبب الرحمة وعامل الإقبال ، أى أن كف بصره ينبغى له اللين والرأفة .

والقرآن الكريم يقول فى آية أخرى : « ليس على الأعمى حرج » فيذكر أيضا كلمة « الأعمى » بمعناها الأصلى وهو كف البصر ، ولكن فى أى موطن ؟ . ليس فى موطن الذم والقدح والتجريح ، بل فى موطن الرحمة والتخفيف ! . . . وإذن فالقرآن لا يسخر من الأعمى كما يظن الجهال ، ولا يذكره ذاما أو ناقدا ؛ وإذن فاستشهاد الكثيرين بالآيات التى تتضمن مادة « العمى » فى الحملة على المكفوفين أو السخرية بهم استشهاد يدل على عمى فى العقل ، وبلادة فى الشعور . وعمى البصر ليس شيئا بجوار عمى البصيرة الذى يذهب بكل حلية فى المرء ، ويجلب عليه كل بلية ، وقد التفت إلى هذا المعنى بعض العباقرة ، وذكروه فى كلامهم ، فقال إبراهيم التيمى : « كفى بالمرء حسرة أن يفسح الله له فى بصره فى الدنيا ، وله جار أعمى ، فيأتى يوم القيامة أعمى ، وجاره بصيرا » . وقال معاوية بن أبى سفيان لعبد الله بن عباس : ما بالكم تصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ ( وكان ابن عباس قد كف بصره فى آخر حياته ) فألقمه ابن عباس حجرا حين أجابه قائلا : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية ! . وسمعت عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا ! . فقالت : ياعبد الله ، عمى القلب أشد من عمى العين فى الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لى كنه محبته ولم يبق منى جارحة إلا أخذها ! . . . وقد ذكرنا أن رجلا قال للقاسم ابن محمد : لقد سلبت أحسن وجهك . فقال : صدقت غير أنى منعت النظر إلى مايلهى ، وعوضت الفكرة فى العمل فيما يجدى ! . . .

والقاعدة التى نريد تثبيتها فى الأذهان ، ولو بالإلحاح فى الإعادة والتكرار ، هى أن كف البصر ليس بعيب موجب للاحتقار ، وليس بنقص يعوق صاحبه عن السبق والتبريز فى الحياة ، إذا هيئت له الوسائل والأسباب ، وكل ما يقال فيه هو أنه نقص

جسمى ، لا يلام عليه صاحبه ولا يعاب ، وأحيانا يهش له صاحبه ويفرح به ، إذ يريحه من سيئات ، ويبسر له حسنات ، ولعل أبا العلاء المعرى أشار إلى ذلك من طرف خفى حين قال : « أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر » .

ومالنا لا نعاود هنا تذكر ما يناله فاقد عينه أو عينيه من أجر عند ربه ؛ ومن أكرمه ربه فقد استوجب إكرام العباد له . . . هذا أبو سفيان صخر بن حرب شهد الطائف مع رسول الله صلوات الله عليه فرُمى يوم ذاك فسقطت عينه ، فالتقطها بيده ، فقال له الرسول : أيما أحب إليك ؛ عين فى الجنة ، أو أدعو الله أن يردها عليك ؟ . فقال أبو سفيان : بل عين فى الجنة ، ورمى بها . وأصيبت عينه الأخرى يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، فبقى أعمى ، وكان يوم اليرموك يهتف : « الله الله عباد الله ، انصروا الله ينصركم . اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، يانصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب » ! . .

على أن هذه الحادثة تذكرنا بحادثة مقابلة ، فعن قتادة بن النعمان قال : أُهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوس ، فدفعها رسول صلى الله عليه وسلم إلىَّ يوم أُحد ، فرميت بها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اندقت عن سِيَتها[1] ، ولم أزل عن مقامى بين يدى رسول الله ( ص ) ألقى السهام ، وكلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا رمى أرميه ، فكان آخرُها سهما ندرت[2] منه حدقتى على خدى ، وافترق الجمع فأخذت حدقتى بكفى ، فسعيت بها فى كفى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآها رسول الله ( ص ) فى كفى دمعت عيناه فقال : «اللهم إن قتادة فدى وجه نبيك بوجهه ، فاجعلها أحسن عينيه وأحدَّهما نظرا» . فكانت أحسن عينيه وأحدها نظرا . .

## قد يسبق الأعمى سواه

وكفيف البصر إذا أوتى الموهبة ، وواتته الظروف ، قد يعلو غيره من المبصرين ، وقد يسودهم فى مواقف يقام لها كل ميزان ، ومن أمثلة ذلك أن أبا العلاء المعرى الضرير دخل ذات يوم على المرتضى بلا قائد ، فعثر فى طريقه برجل ، وتعجل الرجل

---

(١) سية القوس ما عطف من طرفيها . (٢) ندرت : خرجت وزالت عن مكانها .

فقال : من هذا الكلب ؟ فأراد أبو العلاء أن يرد عليه سبّه بأقذع منه ، ولكن فى أسلوب مطوى ، ومن طريق غير مباشر ، وفى الوقت نفسه يبين له أن هذا الضرير المشتوم أفضل فى علمه وحفظه من البصير الشاتم ، فأجابه أبو العلاء معرّضا به : الكلب يا هذا هو من لا يعرف للكلب سبعين اسما . ومعنى هذا أن المعرى يعرف للكلب سبعين اسما ، وإلا لحق عليه باعترافه هو أنه كلب ، وهذه عبقرية لغوية مدهشة ، ومعناه أيضا أن أبا العلاء يدرك أن شاتمه لا يعرف هذه السبعين ، فهو الكلب إذن ! . . ولما شاهد المرتضى ذلك قرّب أبا العلاء وأدناه ، واختبره فوجده عالما ، مشبعا بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه وهو ضرير إقبالا شديدا ، بعد أن ترك المبصرين وراءه ظهريا ! .

وهناك موقف آخر يدل على عبقرية أبى العلاء ، وإن يكن قد أوذى بسببه : كان المرتضى يكره المتنبي وينتقصه فى مجالسه كثيرا ويسخر من شعره ، وكان أبو العلاء يحب المتنبي ويتعصب له ويترنم بشعره ، وهذا منه جد عجيب ، فإن الحسد بين أبناء الحرفة الواحدة مشهور ، وبين الشعراء أكثر اشتهارا ، ولكن الأمر كما قال الحديث : إنما يعرف الفضل لأهل الفضل أصحاب الفضل ؛ ولقد كان المتنبي شاعرا ملأ الدنيا وشغل الناس ، وكان المعرى صاحب ذوق وتقدير وإنصاف . . . وذات يوم انتقد المرتضى شعراً للمتنبي ، واغتاظ أبو العلاء من ذلك ، وأراد أن يهزأ بالمرتضى ويسخر منه ، فقال : لو لم يكن للمتنبي من شعره إلا قصيدته : « لك يا منازل فى القلوب منازل » لكفاه شرفا وفضلا !. وهنا ثار المرتضى وغضب غضبا شديدا ، وأمر بطرد أبى العلاء من مجلسه وإيذائه ، وقال لمن بحضرته : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فإن لأبى الطيب ما هو أجود منها لم يذكره ؟ . فقالوا : السيد النقيب أعرف . فقال : أراد قول المتنبي فى تلك القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

ومع ما نال المعرى هنا من إيذاء فقد كان موقفه مشهوداً مليئاً بالذكاء وبالوفاء !..

ومالنا نذهب بعيداً وأعرق الناس فى العمى فرع طاهر من شجرة النبوة ، يتصل بفروع كلها طاهرة باهرة ، لم تكتف فى دنياها بالتغنى بالانتساب إلى الرسول ، بل عمرت دنياها بصالحات الأعمال وجلائل الأمور ؟ . . حسبك الآن أن تسمع أن أعرق الناس فى العمى هو عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى ،

لأنه أعمى ابن أعمى ابن أعمى ابن أعمى ابن أعمى ؛ وكل واحد من هؤلاء العميان له ذكر مأثور وتاريخ مشهور ... وليست الشواهد هنا مقصورة على أفراد محدودين من المكفوفين سبقوا غيرهم من المبصرين ، بل إنها لتتسع وتستفيض حتى تشمل الجم الغفير ، ومن شاء التماس ما يكفيه — إن لم يقنع بالقليل من الدليل — فعليه بالتاريخ ، ففي عصوره المتتابعة كفاية وغناء ...

## ذكاء العميان

يقول الصفدى فى كتابه : « نكت الهميان » وهو من أهم مراجعنا فى موضوعنا مانصه : «قلّ أن وُجد أعمى بليداً ، ولا يُرى أعمى إلا وهو ذكى» وبعد أن يذكر طائفة من أسماء النابغين العميان ، يعود فيعلل هذا الذكاء فى الأعمى فيقول كما سبق : «والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكّر ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفى المثل : أحفظ من العميان . أورده الميدانى فى أمثاله » . وهذا تعليل جميل ومقبول .

والأخبار والقصص الدالة على ذكاء العميان كثيرة ، مبثوثة هنا وهناك . فقد كان منهم الذى يستطيع أن يضع الخيط فى الإبرة ويخيط الثياب ، ومنهم الذى يلعب النرد والشطرنج . رُوى أن أحمد بن صدقة الماهنوسى كان « طبقة » فى لعب الشطرنج ، وأن أبا العلاء المعرى كان يلعب الشطرنج والنرد كأحسن ما يلعبه المبصرون . ومنهم الذى يعرف الطرق والمسالك معرفة دقيقة باهرة .

وفى تاريخ العميان شخص اسمه « نجم » كان يلعب بالحمام ويصيد الطير الغريب ، وطريقته العجيبة فى ذلك هى أن يبخر طيوره ببخور خاص يميزه ، ثم يطلقها ، وبعد قليل تعود ومعها طيور غريبة ؛ فيرمى الشبكة على الجميع ، ثم يتناولها واحداً بعد واحد ويشمها ، فالذى ليس فيه شىء من البخور يعرف أنه غريب فيصطاده .

وحدث الصفدى قال : «وكان عندنا فى صفد شخص أعمى ، يُعرف بشمس ، كان يسقى من البئر بيده ، ويملأ بحق كبير ، ويتوجه بذلك إلى بيوت الناس وزبوناته ، وهو مع كل ذلك بغير عصا ، ورأيته يوماً هو وزوجة له متوجهين إلى حمام عين الزيتون

وفى الطريق عقبة تعرف بعقبة عين الورد ، وتحتها واد ، وقد أخذ بيد زوجته ، وهو يقول لها : تعالى إلى هنا ، لا تنظرى حتى لا تقعى فى الوادى » ! ! .

ومن ذكاء المكفوفين العجيب أن أبا العلاء المعرى لما ذهب إلى بغداد كان راكباً على جمل ، ومر على شجرة فقالوا له : طأطىء رأسك حتى لا تصطدم بالشجرة ؛ ففعل وأقام ببغداد مدة ثم خرج منها ، فلما مر بذلك الموضع طأطأ رأسه ثانية ، وكانت الشجرة قد قطعت ، فقيل له : لم تخفض رأسك ؟ فأجاب : هنا شجرة أخاف أن أصطدم بها . فبحث القوم فوجدوا أصلها .

والأمير علاء الدين الركنى الزاهد الأعمى المتوفى سنة ٦٩٣ هـ خطّ حماماً فى بلد الخليل عليه السلام ، ورسم الأساس بيده ، وذره بالكلس للصناع ؛ وكان يحب الخيل ويستولدها ، وإذا مر به فرس من خيله عرفه ، وقال : هذا من خيلى ... يعرفه من مشيته أو حمحمته أو رائحته ، أو ما أشبه ذلك .

والإمام ناصر الدين شافع على العسقلانى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ كان جمّاعا للكتب ، وكان إذا لمس الكتاب وجسّه قال : هذا الكتاب الفلانى ملكته فى الوقت الفلانى . وكان إذا أراد أى مجلد قام إلى الخزانة التى هو فيها ، وتناوله منها كأنه وضعه فيها الآن !

وعندما أرّخ الصفدى لعلى بن أحمد الآمدى الأعمى قال : « وكان إذا طُلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها ، كأنه قد وضعه لساعته ، وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطُلب منه الأول مثلا أو الثانى أو الثالث أو غير ذلك أخرجه بعينه وأتى به ، وكان يمس الكتاب أولا ثم يقول : يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة ، فيكون الأمر كما قال ، وإذا أمرّ يده على الصفحة قال : عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً ، وفيها بالقلم الغليظ كذا ، وهذا الموضع كتب به فى الوجهة ، وفيها بالحمرة هذا وهذا ، لمواضع كتبت فيها بالحمرة ، وإن اتفق أنها كتبت بخطين أو ثلاثة قال : اختلف الخط من هنا إلى هنا ، من غير إخلال بشىء مما يمتحن به ، ويعرف أثمان جميع كتبه التى اقتناها بالشراء ، وذلك أنه كان إذا اشترى كتابا بشىء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة ، وفتل منها فتيلة لطيفة ، وصنعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل ، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ، ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد ، فإذا شذ عن ذهنه كمية ثمن كتاب من كتبه مسّ الموضع الذى علمه فى ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه » ! !

ومما يتصل بذكاء المكفوفين براعتهم فى علوم يظن اقتصارها على أهل البصر ، فهناك مئات من المكفوفين بزوا سواهم فى فنون ومعارف تعارف الناس على أنها خالصة للمبصرين ، فهذا مثلا أبو عثمان سعدان بن المبارك الضرير النحوى كانت له مصنفات كثيرة منها : كتاب خلق الإنسان ، وكتاب الوحوش ، وكتاب الأرض والمياه والبحار والجبال . وهذا أبو البقاء البغدادى كان له كتاب الاستيعاب فى أنواع الحساب ؛ وهذا محمد ابن موهوب الفرضى الضرير كان يعلم الجبر والحساب . وهذا عبد الملك بن إبراهيم المقدسى الضرير الفقيه الكبير المتوفى سنة ٤٨٩ هـ كان إماما فى الفرائض والحساب وقسمة التركات ، وكان إليه مرجع الناس فى ذلك .

## من سمات المكفوفين

لم يكن كف البصر عند أصحابه سبباً فى ضعفهم الروحى أو تأخرهم الخلقى ، ففيهم كما فى غيرهم أعلام لأخلاق الرجال ، وفيهم من المحامد ما نجده فى المبصرين الأصحاء .

فى المكفوفين مثلا اعتزاز بالرأى وثبات على المبدأ ، فهذا أبو البقاء عبد الله ابن الحسن البغدادى العكبرى المتوفى سنة ٦١٦هـ كان حنبلياً ، وجاءه جماعة من الشافعية وقالوا له : انتقل إلى مذهبنا ونعطيك تدريس النحو واللغة فى المدرسة النظامية ، فقال : لو أقمتمونى وصببتم الذهب علىّ حتى واريتمونى ما رجعت عن مذهبى !!..

أليس فى هذا عظة بالغة للذين يتنقلون تنقل الثعالب الماكرة كل يوم من لون إلى لون ، ومن طائفة إلى طائفة ، مع أن الانتقال فى المذهب الدينى لا يبلغ فى ضرره مبلغ هذا التلون الخبيث ؟ ! .

وفى المكفوفين عزة نفس وإباء ضيم ، فهذا هو الفضل بن جعفر النخعى الشاعر الضرير المتوفى أيام المعتز يعبر عن ترفعه وشرف همته وعلو عزيمته فيقول :

إن أرُم شامخا من العز أدركه ... بذراع رحب وباع طـــويل
وإذا نابنى من الأمر مكرو ... ه تلقيته بصـــبر جمـــيل
ماذممت المقام فى بـــلد يو ... ما فعاتبته بغـــير الرحيل !

وفى المكفوفين من يخبر الدهر ويعرف لؤم أهله ، فهذا أبو النجم بدر بن جعفر الأميرى الضرير نزيل بغداد المتوفى سنة ٦١١ هـ يقول :

عذيرى من جيل غدوا وصنيعهم بأهل النهى والفضل شر صنيع
ولؤم زمانٍ مايزال موكلا بوضع رفيع ، أو برفع وضيع
سأصرف صرف الدهر عنى بماجد متى آته لا آته بشفيع !

وفى المكفوفين من يعرف كيف يثأر لنفسه إذا هُضم حقه وخاب ظنه ، انظر إلى أبى ثابت الرقى الضرير يمدح العباس بن محمد بن على وقد احتاج إليه ، فيقول له :

لوقيل للعباس : يا ابن محمد قل (لا) وأنت مخلّد ما قالها
ما إن أعد من المكارم خصلة إلا وجدتك عمها أو خالها
وإذا الملوك تسايروا فى بلدة كانوا كواكبها ، وكنت هلالها
إن المكارم لم تزل معقولة حتى حللت براحتيك عقالها !

ولكن العباس استخف به ولم يكرمه ، فغضب أبو ثابت — وإنه لشاعر ! — فقال :

مدحتك مدحة السيف المجلى لتجرى فى الكرام كما جريتُ
فهبها مدحة ذهبت ضياعا كذبت عليك فيها وافتريت
فأنت المرء ليس له وفاء كأنى إذ مدحتك قد رثيت !

والذى توقع العطاء الجزيل من العباس أولا ، لايأمن عقابه حين غضبه ، ولكن الشاعر ثار فمار !! ..

وفى المكفوفين ذوق عبقرى ، وأدب رقيق يدل على أنهم إذا كانوا قد حرموا نعمة البصر فإنهم لم يحرَموا دقة الطبع وجمال التصرف . . حضر أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير يوماً مجلس عبد الله بن طاهر ، فقدموا إليه طبقا عليه قصب قد قشِّر وقطع كاللقم ، فأمره عبد الله أن يتناول منه ، فلما عرف أبو سعيد أنه قصب قال : إن لهذا لُفاظة[1] ترتجع من الأفواه ، وأنا أكره ذلك فى مجلس الأمير . فقال عبد الله متلطفا معه : ليس بصاحبك من احتشمك واحتشمته ، أما إنه لو قُسم عقلك على مائة رجل لصار كل منهم رجلا عاقلا ! .

وصنيع أبى سعيد[2] هذا يذكرنى بالرجل الصالح « الشيخ دسوقى » مقرىء القرآن

---

(١) اللفاظة ما يلفظ كالنوى والقشر ، وهو يريد هنا المصاصة التى تطرح من الفم بعد مص الماء من قطع القصب .

(٢) كان أبو سعيد هذا يقول : إذا أردت أن تعرف خطأ أستاذك فجالس غيره . وهو ينصح بهذا للمقارنة وعدم التبعية ، لاللتلقف العيوب .

الكريم ببلدتنا « البجلات » . إنه مكفوف البصر ولم يتعلم فى جامعات ولا مدارس ، ولكن رقة طباعه تفوق طباع كثير من المتعلمين ... تراه إذا دخّن — والصبى أمامه يتلو حزبه — نفث الدخان يمينا أو شمالا ، بعيداً عن وجه الصبى ، حتى لا يتأذى برائحة الدخان ، وإذا أراد أن يتمخط أخرج منديله ، ثم وضع وجهه بين فخذيه وستره بيديه ثم يتمخط بحيث لا يراه ولا يسمعه أحد ، وإذا أراد أن يتثاءب أو يعطس أو يبصق أخفى ذلك كله فى حذر شديد ، وإذا جاءه صبى وقد آذاه والده سارع الشيخ بإحضار ما يتيسر له من الحلوى ، وقدمه للطفل ، وأخذ يلاطفه ويداعبه حتى يرضى ، ثم يبدأ معه فى التعليم ! . .

وفى المكفوفين عذوبة أدبية وبراعة فنية ، مما يشعرنا بخفة ظلالهم وسموأرواحهم ، وحياة قلوبهم وتوقد مشاعرهم . أليس منهم أبو الحسن على بن عبد الغنى الحصرى صاحب الأنشودة السائرة الباهرة :

ياليل الصب ، متى غده ؟ أقيام الساعة موعده ؟

أليس منهم القائل :

أقول له وقد حيا بكأس لها من مسك ريقته ختام :
أمن خديك تعصر ؟ قال : كلا متى عصرت من الورد المدام ؟

أليس منهم الذى أصابته الصبوة فأحسن لها الاحتيال؟ . فهذا وجيه الدين بن الدهان المتوفى سنة ٦١٢ هـ يقول :

أرفع الصوت إن مررت بدار أنت فيها ، إذ ما إليك وصول
وأحيى من ليس عندى بأهل أن يحيى كى تسمعى ما أقول !

وهنا يحسن أن نشير إلى سوء ظن يوجّه إلى بعض المكفوفين بغير حق . . . إنهم مثلا يعيبون أبا العلاء المعرى لأنه قال :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ويقولون إن تعبيره : « لا يعاد له سبك » دليل على عدم إيمانه بالبعث . . . وهذا غير مسلّم ، لأن المعرى يقول فى موطن آخر :

خُلق الناس للبقـــاء فضلت أمة يحسبونهم للنفـــاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

وقوله : « لا يعاد » يمكن أن نفسره تفسيراً مقبولا يتمشى مع عقيدة البعث ، فالناس فى الآخرة خلق جديد ، غير الخلق الذى كانوا عليه فى الدنيا ، فكأنهم لم يعادوا على وضعهم الأول ، بل بوضع جديد !. . .

ويعيبون على المعرى أيضا أنه قال :

يد بخمس مئين عسجد وُديت ما بالها قطعت فى ربع دينار ؟

قال ياقوت فى ذم المعرى : « لأن المعرى حمار لا يفقه شيئا ، وإلا فالمراد بهذا بين ، لو كانت اليد لا تقطع إلا فى سرقة خمسمائة دينار لكثر سرقة ما دونها طمعا فى النجاة ، ولو كانت اليد تفدى بربع دينار لكثر قطعها ، ويؤدّى فيها ربع دينار دية عنها ؛ نعوذ بالله من الضلال » ! .

وقال السخاوى أيضا يرد على المعرى فى ذلك :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمه البارى[1]

وقد أسرف الذين عابوا أبا العلاء على بيته ، فإن المعنى الذى أراده فيما يبدو هو نفس المعنى الذى يريدونه ، إن أبا العلاء يعجب لليد التى كرمها الله بإغلائها ، حتى جعل ثمنها فى الفداء خمسمائة ، كيف تنحط إلى السرقة ، فتهين نفسها وترخص قيمتها ، حتى تقطع فيما قيمته ربع دينار ؟ ! .

* * *

وفى المكفوفين سخرية تأتى فى موضعها فتكون كالتأديب والتهذيب ، فلا تعاب بل تحمد ؛ هذا رُسته ابن أبى الأبيض الضرير الأصبهانى المتوفى سنة ٦١٦ هـ يقول هاجيا قوما جاءهم وهم على طعام فاستخفوا منه :

أيها الإخوة الذين لسانى فى قديم الزمان عنهم كليل
جئتكم للسلام حتى إذا ما صحت شهراً كما يصيح الذليل
قيل : قد أُدخل الخوان عليهم قلت : مالى إذن إليهم سبيل !

---

(١) يروى هذا البيت هكذا :
صيانة العرض أغلتها ، وأرخصها صيانة المال ، فافهم حكمة البارى

ومن المنسوب إلى المعرى — وقد عابوا العمى فسخر بهم — قوله :

قالوا : العمى منظر قبيح قلت : بفقدانكم يهون
والله ما فى الوجود شىء تأسى على فقده العيون[1] !

وكان فى المكفوفين أقوام يهابهم الكبراء ، ولا يهابون إلا الله ، هذا شيث ابن إبراهيم القناوى الضرير المتوفى سنة ٥٩٩ هـ يقال فى تاريخه : « وكان يسير فى أفعاله وأقواله سيرة السلف ، وملوك مصر يعظمونه ، ويجلون قدره ، ويرفعون ذكره ، على كثرة طعنه عليهم ، وعدم مبالاته بهم » .

وهذا صالح بن عبد القدوس البصرى الضرير يهتف :

ياصاح ، لو كرهت كفى مصاحبتى لقلت إذ كرهت كفى لها : بينى
لا أبتغى وصل من لا يبتغى صلتى ولا أبالى حبيبا لا يبالينى !

وهذا هو العلامة الزاهد الكبير أحمد بن يوسف الكَوَاشى العراقى المتوفى سنة ٦٨٠ هـ يقال فى تاريخه : « كان السلطان ومَن دونه يزورونه ، ولا يعبأ بهم ، ولا يقوم لهم ، ولا يقبل منهم شيئا » .

وهذا محمد بن شِرْشيق الأعمى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ يوصف بقول التاريخ : « وله وجاهة عند الملوك ، وهو لا يكترث بهم » .

## نوادر المكفوفين

للمكفوفين كثير من النوادر والملح المبثوثة فى مصادر الأخبار والأنباء ، وهذه النوادر تدل على ذكائهم وحضور بديهتهم ، ولن نستطيع فى بحث كهذا أن نسوق كثيرا من هذه الملح . فحسبنا أن نذكر بعضا ، وهو يدل على الباقى :

قال بعضهم لبشار بن برد : ما أذهب الله عينى مؤمن إلا عوضه خيرا منها ، فبم عوضك ؟ . فأجابه : بعدم رؤية الثقلاء مثلك ! ...

وتزوج رجل مكفوف امرأة قبيحة ، فقالت له : لقد رزقك الله أجمل النساء ، وأنت لاتدرى . فأجابها : يالكع ، وكيف تركك البصراء إذن لمثلى ؟ ! . . .

---

(١) هذا يذكر بقول الآخر السابق :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

وخرج مكفوف ليلا ومعه جرة وسراج ، فقال له مبصر قابله : ما حاجتك إلى السراج يا هذا ، والليل والنهار عندك سواء ؟ . فقال الكفيف : يا فضولى ، لقد حملته لأعمى البصيرة مثلك ، حتى لا يصدمنى فأقع أنا وتنكسر الجرة ! . . .

ولأبى العيناء محمد بن القاسم الضرير طائفة كبيرة من النوادر نسوق بعضها :

وهبه بعض الوزراء دابة ، فانتظر منه علفها ، فطال به الانتظار ، فقال له : أيها الوزير ، هذه الدابة حملتنى عليها ، أو حملتها علىّ ؟ .. ومر يوما على دار عدو له يدعى أبا محمد ، فسأل عنه بعضَ الناس : ماخبر أبى محمد ؟ فأجابه المسئول وهو لا يعرف العداوة بينهما : كما تحب . فأجاب أبو العيناء : فمالى لا أسمع الرنة والصياح ؟ ! . ووعده أحد الكبراء ببغل ثم نسى ، فقابل أبا العيناء فسأله : كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟. فأجاب : أصبحت بلا بغل ! . وقال أبو العيناء : أنا أول من أظهر العقوق بالبصرة ، قال لى أبى : يا بنى ، إن الله قرن طاعته بطاعتى فقال : « أن اشكرلى ولوالديك » فقلت له : يا أبت ، إن الله ائتمننى عليك ولم يأتمنك علىّ ، فقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » .

ورفع غلامُ بشار إليه فى حسابه عشرة دراهم لجلاء مرآة فى بيته ، فقال بشار : مافى الدنيا أعجب من جلاء مرآة لأعمى بعشرة دراهم ، والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم ! .

وجاء إليه رجل مبصر يسأله عن دار ، فجعل يُفهمه ، والمبصر لا يفهم ، فقاده بشار وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكم  قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى وصل به إلى الدار ، ثم قال له : هذه هى الدار يا أعمى ! . .

## جريمة سمل العيون

وراعنى وأنا أطالع تراجم العظماء من المكفوفين أن أشهد آثار جريمة كبرى كانت ترتكب فى عصور التاريخ ، وهى جريمة سمل العيون أو تكحيلها ، أى إضاعة إبصارها بفقئها . جاء فى « أساس البلاغة » : سمل عينه فقأها ، قال أبو ذؤيب :

فالعين بعدهم كأن حداقها  سملت بشوك ، فهى عُور تدمع

وفى ( القاموس ) : « سمل عينه فقأها كاستملها ، وسمّال أبو قبيلة . لأنه لطم رجلا فسمل عينه ، والسُّمْلة بالضم دمع يهراق عند الجوع الشديد كأنه يفقأ العين » .

وفى ( النهاية ) لابن الأثير : « فى حديث العرنيين : فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، أى فقأها بحديدة محماة أو غيرها ، وقيل فقؤها بالشوك ، وهو بمعنى السمر[1] ، وإنما فعل بهم ذلك لأنهم فعلوا بالرعاة مثله ، وقتلوهم فجازاهم على صنيعهم بمثله ، وقيل إن هذا كان قبل أن تنزل الحدود ، فلما نزلت نهى عن المثلة » .

ولكن العجيب أن أغلب الذين نالتهم هذه المصيبة كانوا عظماء ، أو ذوى مكانة ملحوظة فى الحياة ، فأمير المؤمنين القاهر محمد بن أحمد العباس المتوفى سنة ٣٣٩ هـ سملت عيناه ، وأمير المؤمنين الطائع لله المتوفى سنة ٣٩٣ هـ سملت عيناه ، وأبو إسحاق المتقى لله ابن المقتدر المتوفى سنة ٣٥٧ هـ « خلعوه وسملوا عينيه وبقى فى قيد الحياة خمسا وعشرين سنة بعد خلعه » . والوزير أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية المتوفى سنة ٣٦٧ هـ قبض عليه عز الدولة بمدينة واسط وسمل عينيه . والوزير أبو الفضل على بن محمد بن العميد « قبض عليه مؤيد الدولة فى شهر ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة وحبسه وعذبه وسمل عينيه وجدع أنفه وجز لحيته » ! ! . . وأبو الحسن على بن مسهر القرشى « ولى قضاء أرمينية فلما قدمها اشتكى عينيه فقال قاض كان قبله للكحّال : اكحله بما يذهب عينه حتى أعطيك مالا ؛ فكحله ، فذهبت عينه ، فرجع إلى الكوفة أعمى ، وتوفى سنة ١٨٩ هـ » . وفى ترجمة « نكت الهميان » لحياة الأمير صاروجا صارم الدين المظفرى المتوفى سنة ٧٤٣ هـ وردت هذه العبارة : « ثم إن المرسوم ورد من مصر بتكحيله ، فدافع عنه الأمير علاء الدين الطنبغا النائب بُوَيْمات يسيرة ، ثم إنه خاف وصمم وكحله فعمى بأمره ، وفى صبيحة ذلك اليوم ورد المرسوم بالعفو عنه » . كما وردت هذه العبارة : « كان بنو بُوَيه وغيرهم إذا خلعوا الخليفة سملوه ، حتى لا يعود ترجى له الخلافة ولا انعقاد الإمامة » ! !

يا لله ، لكأن الخسة فى طبيعة بعض البشر ميراث قديم !... وإلا فما هذه الوحشية

---

(١) فى مادة سمر : فسمر أعينهم ، أى أحمى لهم مسامير الحديد ، ثم كحلهم بها . وهذا يفيد أن التكحيل هو السمل .

القذرة التى تحدثنا عنها آثارها الشنيعة الماثلة فى أولئك الضحايا الذين ذهبت عيونهم إرضاء لشهوة الانتقام ، دون أن يكون هناك عدل يمنع ،أو ضمير يردع ؟! .

## طريقة بريل

من كان يظن فى العصور السحيقة أن المكفوفين سيأتى عليهم زمان يكتبون فيه ويقرأون ؟... لكن هذا هو ما كان ، فقد نشأت طريقة « بِرَيل » لتعليم المكفوفين ، فكانت حدثا علميا جديدا ، عوض المكفوفين الكثير عما فاتهم بفقدانهم البصر ، ولهذه الطريقة قصة ، فمنذ عشرات من السنين فكر قائد فرنسى فى اختراع إشارات تلمسها الجنود بالأيدى وقت الظلام ، فيعرفون منها أوامر قائدهم ، فصنع القائد لوحة نحاسية ، وحفر عليها حُفرا ذات أشكال كثيرة ، كل شكل يدل على اصطلاح خاص ، وسمع بهذه الفكرة فرنسى آخر كفيف البصر اسمه « بريل » فذهب إلى القائد ، وبحث معه فكرته ، ورأى أنها تصلح لإيجاد طريقة كتابية للمكفوفين ، وفعلا حققها عن طريق نقط تنقر على الورقة ، وكل مجموعة منها ذات شكل خاص تدل على حرف ، وتستطيع يد المكفوف قراءتها عن طريق لمسها . كما يستطيع أن يكتبها عن طريق آلة صغيرة ذات منقار . وأخذت الطريقة تتسع وتتحسن ، وتنتقل من فرنسا إلى بلاد أخرى ، وقررت إحدى الجامعات التابعة لحكومة الولايات المتحدة فى سنة ١٨٥٩ تدريس الطريقة فيها ؛ وهناك كتب كثيرة طبعت على طريقة بريل ، بل وهناك صحف ومجلات ، وفى سنة ١٨٧٥م ذهب الدكتور محمد أنسى من مصر إلى فرنسا ، ودرس طريقة بريل ونقلها إلى مصر ، ثم أنشأت وزارة المعارف أخيراً بعض المعاهد فى الزيتون والقاهرة لتعليم المكفوفين من البنين والبنات ، ولكن بصورة ضيقة ، وخطوات متعثرة ، مع أن أوروبا تهتم بتعليم مكفوفيها اهتماما كبيرا ، حتى لا تكاد تحس فارقا بين المكفوف المتعلم وبين البصير المثقف ، لأن طريقة « بريل » يسّرت أمام المكفوف كل عسير من شئون التعليم ، حتى أصبح قادراً على تعلم الحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والموسيقى ، وغير ذلك من الفنون .

ولو حضرت مهرجانا من مهرجانات المكفوفين المتعلمين على طريقة « بريل » لرأيت عجبا ، هذا يكتب ، وذاك يقرأ ، وذلك يحسب ، وبجواره من يخبرك بالنتائج ، وذلك

يعزف على الآلات الموسيقية كالعود والقانون والناى والبيان والقيثارة وغير ذلك . وأحيانا يسبق المكفوف غيره من المبصرين فى هذه النواحى ، وذلك لأن المكفوف متفرغ ، عنده فراغ كثير ،وله رغبة قوية فى استكمال نقصه ، وطريقة بريل هى السبيل الوحيدة التى تصله بالحياة ؛ وأما البصير فإنه مشغول بالمرئيات كالسينما والمسرح والملاهى والمتنزهات ، ومشغول بالتنقلات والأسفار والرحلات ، وغير ذلك .

## المكفوفون فى الأزهر

يوجد فى الأزهر الشريف عدد كبير من المكفوفين ، وهؤلاء مبثوثون فى المعاهد الابتدائية والثانوية ، وفى الكليات الأزهرية ، وفيهم عبقريات مدفونة، وكنوز من العلم والفهم مطوية ، ولكنهم يلاقون الإهمال من المشرفين عليهم ، لأنهم يتعلمون على طريقة الاستماع البدائية ، ولم يفكر ولاة الأمور فى الأزهر حتى الآن فى تعليمهم على طريقة « بريل » حتى لا يضيع عليهم هذا المقدار الهائل من العلوم والمعارف ... وإنك لتطالع « نظام قبول العميان فى الأزهر » فتجد فى طليعته هذه المادة :

« المواد التى يعفى العميان من الامتحان فيها هى المطالعة ، والإملاء ، والخط ، والحساب ، والهندسة ، والجبر ، والرسم ، والطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ الطبيعى ( علم الحياة ) ، والتوثيقات الشرعية ، وإجراءات وتمرينات قضائية ، والقضايا ذات المبادىء والمحاضرات الفلكية ، والتربية البدنية » ! ! . .

وبعد قليل تطالعك هذه المادة : « لا يعقد امتحان تحريرى للعميان فى أى مادة مطلقا ، سواء فى النقل أو الشهادات ، ويدخل فى ذلك التخصص القديم » .

وبعد قليل تطالعك هذه المادة : « يحذف من منهج الجغرافيا والتاريخ فى القسمين الابتدائى والثانوى كل ماهو متعلق بالخرائط والأشكال والرسوم وزيارة ودراسة الآثار ، وأن يحذف من منهاج تدبير الصحة الرياضة البدنية ، وبيان الجهاز الهضمى والجهاز التنفسى على خرائط ونماذج مجسمة . ويتبع ذلك إعفاء الطالب من الامتحان فيما حُذف ، أما الباقى فيجرى امتحانهم فيه شفويا » ! ! . . .

وبعد قليل تجد أيضا هذه المادة : « يدرّس الحساب للطلبة المكفوفين للثقافة فقط ولكنهم لا يمتحنون فيه » !!. ومعنى هذا أن المكفوفين فى الأزهر الشريف محرومون

من تلقى أكثر العلوم ، وهم مرتبطون فى مواعيد دراستهم بالمبصرين ، ولهذا يضيع عليهم أكثر اليوم المدرسى فى انتظار أو سأم أو لهو ، وإنك لتأسى كل الأسى كلما رأيت طوائف المكفوفين فى فروع الأزهر المختلفة وهى تخرج من الفصول عدة مرات كل يوم ، لماذا ؟.. لأن المادة غير مقررة على المكفوفين ! . . . ويخرج المكفوف من الحصة بلا قائد أو مرشد ، ويظل يسامر الفراغ والبطالة حتى تقبل الحصة النادرة التى يشترك فيها . . .

أليس هذا ضياعا ما بعده من ضياع ؟ . أليس هذا معاونة على تكوين النفسية المنحرفة عند الأعمى بسبب هذا الإهمال ؟ . أليس هذا عنوانا على الجهل المطبق ، أو التنكر المؤلم ، لما أخذ به العالم الحديث من أساليب رائعة فى تعليم المواد والعلوم التى كان يظن أنها مقصورة على المبصرين ؟ . . . وما جدوى المكفوف الأزهرى إذا تخرج وهو لا يعرف إلا مجالات تافهة فى علوم قليلة ، يعتمد فى حفظها وفقهها على السماع وحده ؟ . .

إن الناس يقولون : كل ذى عاهة جبار . . . ويطلقون هذا القول كثيرا على المكفوف ، ويقصدون أنه جبار فى الفساد ، وهذا قول يصح إذا أهملنا المكفوف ، وفرطنا فى أداء حقوقه إليه ، وأما إذا عاوناه وثقفناه وهذبناه فإنه يصبح جباراً فى العلم ، وجبارا فى الذكاء ، وجبارا فى الإنتاج ؛ وشواهد الماضى والحاضر على ذلك كثيرة .

فالواجب أن يعجل المسئولون فى الأزهر باتباع طريقة « بريل » لتعليم مكفوفيه ، فإن الله جل وعلا سيسألهم مشددا فى السؤال عن أمانات هؤلاء المكفوفين الذين يضيعون بددا ، فيضيع على الوطن كنوز وكنوز .

رحم الله أمير الشعراء « شوقى » حينما وجه إلى الملك فؤاد الخطاب فى قصيده الرائع الخالد عن الأزهر المعمور ، فقال له عن مكفوفيه :

نظراً وإحسانا إلى عميانه ... وكن المسيح مداويا ومجبرا
والله ما تدرى ، لعل كفيفهم ... يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد ... غبنا ، وجلّ المشترى والمشترى
إن فاتهم من نور وجهك فائت ... لم يعدموا لوجوه برك منظرا
لمسوا نداك كمن يشاهد مزنة ... ويد الضرير وراءها عين ترى

زدهم أبا الفاروق ، إنك خيّر من خيّر ، ولد الكريم الخيرا !

ولله شوقى حين قال : « ويد الضرير وراءها عين ترى » ! . لكأنه كان يصور طريقة « بريل » فى جملة موجزة ، فإن أصابع الضرير تستطيع إذا تعلمت وتقومت أن تصنع الأعاجيب ، وأن تكون عينا مبصرة تهدى وترشد ؛ فهل آن الأوان لرجال الأزهر أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة ، وأن يعجلوا بإدخال طريقة « بريل » لتعليم المكفوفين فى الأزهر ؟ . . .

## المكفوفون فى مصر

رحم الله أبا العلاء حين قال :

ولو أنى حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائبُ ليس تنتظم البلادا

فأنا لست أطلب العناية بمكفوفى الأزهر الشريف وحدهم ، بل أعمم طلب العناية بالمكفوفين ، حتى تشمل كل مكفوف فى وادى النيل ، فإنه لمن دواعى الخزى والعار أن تتقدم الأمم خطوات بعد خطوات فى تعليم مكفوفيها أغلبَ العلوم والمعارف والفنون والصناعات ، وتظل مصر مهمِلة لشأن مكفوفيها هذا الإهمال الشنيع . . .

نعم إن فى مصر بعض المدارس لتعليم المكفوفين ، وبعض الجمعيات للاهتمام بأمرهم ، وفى هذه المعاهد يتعلم المكفوفون القراءة والكتابة ، والمعلومات العامة ، وصنع السلال والفُرُش والمقشات والأحذية ، والكراسى ، ويمهرون الموسيقى والغناء . ولكنها معاهد ضئيلة قليلة لا تفى بالغرض ، ولقد زرت هذه الأماكن فى ضاحية « الزيتون » فزرت الجمعية المصرية للعميان ، وجمعية النور للنهضة بمكفوفى البصر ، ومعهد النور ، ومعهد التخصص للمكفوفين ، ورأيت هناك بضعة عشرات من المكفوفين ، فأين يقع هذا العدد الضئيل من آلاف كثيرة حرمت من نعمة البصر فى الوادى الخصيب ؟ . . أضف إلى ذلك أن هذا العدد القليل الموجود فى معاهد العميان بالزيتون محروم من حقوق كثيرة له ، وهم لا يزالون يصرخون منادين بإنصافهم ، وفتح المصانع لهم ، واعتماد المال اللازم لتحسين أحوالهم ، ووضع الضمانات لمستقبلهم ، واستحضار المطابع الخاصة بكتبهم ونشراتهم ، وتهيئة الأدوات الميسرة لتعليمهم على طريقة « بريل » .

وأقسم لقد كان الدمع يتحير فى عينى وأنا أستمع إلى صرخات هؤلاء المحرومين ، يرسلونها أنينا وزفيرا ، وهذا نموذج من النداءات التى صاغوها وطبعوها ووزعوها على رجال البلد المسئولين :

« إلى شيوخ الأمة الموقرين ونوابها المحترمين ، نتقدم نحن صناع الجمعية المصرية بصرخة من الأعماق صادرة عما احتوانا من بؤس مرير وشقاء لا يطاق ، ففى طفولتنا حرمنا أعز نعمة فى الوجود ، ألا وهى نعمة البصر ، وفى شبابنا حرمنا الرحمة والعطف ، وها نحن أولاء الآن قد ابتلينا بالظلم ، لأننا قد تعلمنا صناعة الخيزران والفُرش على اختلاف أنواعها ، والمكانس والسلال ، وأتقناها على أحسن وجه ، والدليل على صدق قولنا الامتحان الذى أجرته لنا وزارة المعارف فى شهر أكتوبر الماضى — سنة ١٩٥٠ م — واجتزناه بتفوق وبراعة ، ورغم كل هذا ، ورغم ما تقدمنا به مراراً وتكراراً لكل مسئول فى هذه الأمة ، فلم نلق إنصافا ، ولم نجد استجابة ما لمطالبنا العادلة التى تتلخص فى توسيع مصنع النور للعميان بالزيتون التابع لوزارة المعارف ليستوعبنا بين جدرانه مع زملائنا من المكفوفين الذين لا نقل عنهم كفاءة ولامقدرة ، والذين يتمتعون بمرتبات معقولة تمشيا مع الكادر العام لعمال الحكومة ، إذ يتقاضى أقل عامل فيهم سبعة جنيهات شهريا ، فى حين يتقاضى أقدم عامل فينا جنيهين فقط شهريا ، بدون أى امتياز آخر .

ولو اقتصرت وزارة المعارف على استيراد ما تستهلكه من سلال وفرش ونحوها من مصنعها الخاص بالعميان لاحتاجت إلى تشغيل الآلاف من المكفوفين ، ولوفرت ما تنفقه من آلاف الجنيهات سنويا فى عمليات الشراء من المصانع الأهلية ؛ وها نحن أولاء الآن نتقدم بآخر رجاء إليكم ، يا من بيدكم سن القوانين ووضع المشاريع . . . نتقدم إليكم مستعطفين مسترحمين أن تهبوا لنجدتنا مما نعانيه من فقر مدقع ، وما نقاسيه من ألم ممض ، فقد أصبحنا الآن نحيا حياة لا تليق بإنسان ، فعليكم وحدكم يا ممثلى الأمة عقدنا الآمال ، دمتم لمصر . عاشت مصر ، وعاش الملك » ! . .

* * *

إن المكفوف يستطيع مع العناية والاهتمام أن يجيد كثيرا من الأشياء ، كحفظ القرآن الكريم وتحفيظه ، والقراءات والتجويد ، والإمامة والخطابة والدروس

الدينية والوعظ ، حتى قال إبراهيم بن هانىء كما سبق : من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخا بعيد مدى الصوت ... وكترتيل الموشحات والموالد وإتقان الموسيقى والغناء ، والصناعات اليدوية ، والصحافة والأعمال الأدبية ، وغير ذلك ، فكيف نهمل المكفوف فى مصر ، حتى صار لا يخرج عن كونه متعطلا أو متسولا إلا فى نادر الأحوال ؟ . .

* * *

ألا إنه عار أى عار أن تترك الدولة إخواننا المكفوفين فى مثل هذا الإهمال ، ثم تدعى لنفسها أنها دولة ذات مدنية وحضارة . .

إن أصابع الكفيف المهمل التى ترتفع الآن فى عرض الطريق حائرة تطلب الهداية إلى سواء السبيل ، من حقها أن تتعلم وتتقدم وتتهذب ، حتى تكون كأصابع الفجر الوردية تقبل بالضياء والنور ، وتكون لصاحبها عينا — وقد فقد عينيه — تهديه فى ظلمات هذه الحياة ، فهل من سميع ؟ ! . .

# لمحة عن جمال الدين الأفغانى

إذا كان العظيم يبهر بحياته وأعماله ، فإنه كذلك يبهر بسيرته وتاريخه . وكم انطوت صفحات التاريخ القديم والحديث على ذكريات وأقاصيص ، لأناس عاشوا حينا من الدهر كما نعيش ، ثم طوتهم يد الحدثان والفناء ، كما ستطوى كل حى فى هذا الكون الوسيع ، ولكن هذه الذكريات والأقاصيص ظلت على مر الأيام وكر الليالى ، توحى بالعبرة ، وتحرض على المكرمة ، وتحث قارئها ومتدبريها على خطة السيادة والفخار !.

والسيد جمال الدين الأفغانى رضوان الله عليه ، يعتبر بحق الرائد الأول فى ميدان التجديد الإسلامى الحاضر ، ويعد بصدق حامل اللواء الأول لإيقاظ المسلمين من غفلتهم ، ووصل العرب بأمجادهم ، وإثارة روح الحرية والنهضة والتوثب والاستقلال فيهم ، فلا عجب إذا ما كررنا الوقوف أمام تاريخه ، نستعرضه ونتبصره ، ونستخلص منه دوافع العمل ووسائل الجهاد ؛ وتلك لمحة عن حياة السيد جمال الدين ، لم أتعرض فيها لتفصيل طويل ، أو تحليل جامع ، وإنما اقتصرت على السطور الرئيسية فى حياته ، وهى على وجازتها وقصرها تكفى وتشفى ، وفيها بلاغ وذكرى لقوم مؤمنين .

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى سنة ١٢٥٤ هـ الموافقة سنة ١٨٣٨ م ، واختلف المؤرخون فى مسقط رأسه ، فمن قائل إنه ولد بقرية « همذان » فى إيران ، ومن قائل إنه ولد فى قرية « أسعد أباد » فى بلاد الأفغان ، والراجح هو القول الثانى ، وإنما جاء الاختلاف فى تحديد المكان من تجاور القطرين ، ومن كثرة تنقل السيد جمال الدين بينهما ، ولوجود علاقات من جهة النسب والقرابة له فى هذين البلدين !.

وقد ولد جمال الدين من أبوين متوسطى الحال ، ولكنهما ينتميان إلى محتد عريق فى المجد ، وأصل أصيل فى الشرف ، إذ ينتهى نسبهما إلى الإمام الترمذى المحدث المشهور ، ثم يرتقى بعد ذلك إلى أبى الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، الحسين بن على رضوان الله عليهما .

وقد تولت أسرة جمال الدين الإمارة والسيادة فى موطنها حينا طويلا من الزمان ، ثم جاء أحد الأمراء فانتزع منها الإمارة ، وأمر بنقل أسرة جمال الدين إلى ( كابل ) . وكان جمال الدين حينئذ فى الثامنة من عمره ، فبدأ يتعلم فى إحدى المدارس الصغيرة ، وما هى إلا أيام تمر حتى أخذت بوادر الذكاء وبشائر النبوغ تلوح على مخايله واضحة جلية ، فأتقن العلوم الإسلامية والعربية ، وجمع إلى هذا السبق ميلا ظاهرا إلى الفنون العسكرية ، وما له صلة بالحرب والقتال ، وهكذا شأن العالم الذى يجمع بين العلم والعمل ، والكلام والجهاد ، ويكون راهبا من رهبان الليل فى أيام السلام والصفاء ، وفارسا من فرسان الميدان فى وقت الكفاح والنضال . ولذلك قال عنه المستر « جورج كوتشى » :

« إن جمال الدين قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه النادر ، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون العسكرية » .

ولم يكتف بهذا ، بل تعلم اللغات الإنجليزية والفارسية والتركية ، ورحل فى سبيل العلم إلى الهند ، فمكث فيها ردحا من الزمن تعلم فيها أشياء كثيرة ، وأضاف إلى معارفه الشرقية كثيرا من المعارف الحديثة والعلوم الغربية .

وبعد أن نهل من العلوم ما شاء فى الهند ، تطلعت رغبته إلى أداء فريضة الحج المقدسة ، وأراد أن يجمع إلى أداء الفريضة تحقيق غرض آخر ، وهو دراسة ما يمكن دراسته من البلاد الشرقية ، دراسة عملية مبنية على الرؤية والمشاهدة ، فأخذ ينتقل من بلدة إلى أخرى ، حتى أحاط علما بأحوال هذه البلاد الشرقية المترامية الأطراف ، ثم بلغ الحجاز الحبيب ، وأدى ما عليه من فرض دينى ، ثم انتهز هذه الفرصة لتحقيق أمل طالما اختمر فى ذهنه ، وسامر خياله ، وهو الجهاد فى سبيل « تحقيق الجامعة الإسلامية » فما كاد يرى هذه الألوف المؤلفة التى هرعت إلى بيت ربها من كل فج عميق ، حتى أخذ يدعو لفكرته ، ويحادث بشأنها كبار الرجال من المجاهدين والمصلحين والعلماء والأدباء ، ولم يغادر بلاد الحجاز حتى غرس بيده أول شجرة فى هذه الروضة المباركة ، فأنشأ « جمعية أم القرى » التى يمثل فيها كل قطر إسلامى ؛ وفعلا كانت هذه الجمعية أول محاولة مجدية فى سبيل تنبيه المسلمين إلى وجوب اتحادهم واجتماعهم على كلمة واحدة ! .

ثم عاد إلى وطنه أفغانستان بعد ذلك ، وظهر هناك بعلمه وفضله ، وحكمة تدبيره وبعد نظره ، فلما بلغ السابعة والعشرين من عمره تولى منصب كبير الوزراء فى عهد

« محمد أعظم » ، فصرّف الشئون الكبرى بإحسان وإتقان ، مما جعل إنجلترا السفلى عدوة الحريات فى الشرق جميعه تحنق على جمال الدين ، وعلى الذين أتاحوا له فرصة التصرف فى شئون الدولة ، بهذا الأسلوب الحكيم الذى لا يرضى عنه العدو الدخيل ، فأخذت إنجلترا تحيك له الدسائس والوشايات ، حتى لقد فكروا فى اغتياله مرارا ، وهو يغالبهم فيغلبهم بفضل الله ومعونته ؛ ثم ضاق بأساليبهم الوضيعة ذرعا ، فترك إيران وفر إلى الهند ، فلقيه أهلوها لقاءهم للبطل الفاتح ، والإمام المجدد ، فأغضب ذلك الإنجليز غضبا شديدا ، وتابعوه بمكرهم ودهائهم ، وحالوا بينه وبين دروسه العلمية والاجتماعية التى طلبها منه علماء الهند وأدباؤها . ولم يطيقوا بقاءه فى الهند أكثر من شهر واحد ، ثم أركبوه على الرغم منه باخرة متجهة إلى السويس ! .

وصلت الباخرة بالسيد جمال الدين إلى السويس فى أوائل سنة ١٨٧٠ م ، ثم نزل القاهرة ، ومكث بها أربعين يوما فقط ، ولكنه استطاع خلالها أن يدرس البيئة المصرية ، وأن يتعرف إلى كثير من رجالها العظماء ، وأن يبهر مئات من العلماء ، بفضله وأدبه ، وواسع علمه وغزير معرفته ؛ ولقد تحدث عن ذلك الإمام الجليل الشيخ محمد عبده فقال :

إن الذى أخبرنى بقدوم السيد جمال هو أحد طلاب العلم السوريين فى رواق الشوام ، قال : إنه قدم مصر عالم أفغانى عظيم ، وهو يقيم فى خان الخليلى ، فسررت لذلك ، وأخبرت الشيخ حسن الطويل ، ودعوته لزيارته معى ، فألفيناه يتعشى هو وخادمه أبو تراب ، فدعانا إلى الأكل معهما فاعتذرنا ، فطفق يسألنا عن بعض آيات القرآن ، وما قاله المفسرون والصوفية فيها ، ثم يفسرها لنا ، فكان هذا مما ملأ قلبى إعجابا ، وشغفنى به حبا .

ولم يطب له المقام حينئذ فى مصر ، واعتزم الرحلة مرة أخرى إلى الأرض المقدسة التى بارك الله حولها ، وجعلها حرما آمنا ، لكى يواصل نشاطه فى ( جمعية أم القرى ) ولكن الخليفة فى الآستانة استدعاه إليه فأجاب دعوته ، وهناك فى تركيا استقبلوه استقبالا كريما ، وأعجب السلطان عبد العزيز بأجوبته وتفكيره ومعارفه ، فأراد نفع الدولة بمواهبه ، فأصدر أمره بتعيينه عضوا فى « مجلس المعارف » ، فأخذ يبعث الحياة الجديدة ، والروح القوية ، والتعاليم الحقة فيما حوله ، مما كان بردا وسلاما على

قلوب المصلحين المخلصين ، ونارا وزقوما فى نفوس الحاسدين الحاقدين . وقد بز هؤلاء الحاسدون الشيطانَ فى تلبيسهم ومكائدهم ، فتارة يتهمونه بالخيانة ، وتارة بالتكبر على السلطان ، وتارة بالإلحاد والزندقة ؛ وهذا مايقابل المصلحين دائما ، لا بد أن تصادفهم فى الطريق عقبات المعوّقين ، وأشواك المثبطين ، ولكن الله دائما غالب على أمره ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون ! .

وإذا كانت حكومة تركيا فى نهاية الأمر قد خضعت لأولئك المشّائين بالنميمة ، الساعين بالكيد والفتنة ، فأخرجت السيد جمال الدين من بلادها ، فإنه بحمد الله قد وجد عنها خير العوض ، إذ نزل مصر كنانة الله فى أرضه للمرة الثانية ، ليبث فيها الهدى والنور من جديد ! ! . وكان ذلك سنة ١٨٧١ م .

نزل السيد مصر وفيها الخديوى إسماعيل الذى يحب العلم ويشجع العلماء ، ويسابق تركيا فى مظاهر السيادة والسلطنة ، ويحاول أن يستقل بمصر عن تبعيتها لتركيا ، فكانت هذه الظروف سببا فى أن يجد جمال الدين من إسماعيل مرحبا ومكرما ، فأجرى عليه إسماعيل راتبا قدره مائة وعشرون جنيها مصريا فى السنة ، وهو مبلغ كان يومئذ كبيرا .

وفى مصر احتال جمال الدين حتى جمع حوله ما يقرب من ثلاثمائة من خيار الرجال والمفكرين ، وأخذ يبث فيهم تعاليمه وأفكاره ، وكان منهم سعد زغلول والشيخ محمد عبده وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوى وأحمد شفيق والشيخ عبد الرحمن قراعة وعبد الله نديم والشيخ بخيت ، وغيرهم ممن كانوا بحق طلائع النهضة الدينية والوطنية والاجتماعية فى العصر الحاضر .

وكانت دروسه وصرخاته فى الغالب جذوات ملتهبة من الوطنية والتحريض على الحرية والاستقلال ، وإعادة العز القديم ، ومن أمثلة ذلك قوله :

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وأنتم فى غفلة معرضون ، فلو كان

في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . .

تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأتراك والمماليك ، ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لاحس لكم ولا صوت ، انظروا أهرام مصر ، وهيا كل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، تروها شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح !

هبوا من غفلتكم ، واصحوا من سكرتكم ، وانفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، وعيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء » ! ! .

ولكن الإنجليز الوضعاء — دائماً — لم يتركوا السيد جمال الدين يقوم بواجبه نحو الله والشرق ، بل أخذوا يحرضون الخديوى توفيق وحكومته على نفى السيد من مصر ، وكأنهم قد وضعوا فى منهاجهم أن لا يتركوه فى أية بقعة من بقاع العروبة أو الإسلام ، فاضطهدوه وحاربوه فى إيران ، وكذلك فى الهند ، وكذلك فى تركيا ، وأخيراً فى مصر ! ! . .

واستجابت حكومة توفيق فعلا لرغبات الدخلاء المحتلين ، فقبضت على السيد جمال الدين فى مساء السبت ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ، وحالوا بينه وبين رؤيته لأصدقائه وتلاميذه ، ومنعوه من ملابسه وتلاميذه ، وسجنوه فى حجرة مظلمة ، وفى الصباح الباكر أخذوه فى القطار إلى السويس ، وأنزلوه فى باخرة متجهة إلى الهند ، وعلم بذلك أحباؤه وأصفياؤه فسارعوا بتوديعه فى السويس ، وهم فى همّ مقعد مقيم ، وألم شديد ، ولكنه أخذ يواسيهم ويهون عليهم الموقف ، وقال لهم تلك القولة المشهورة :

« إننى خرجت من الديار ( يعنى مصر ) وما ألفت كتاباً ، ولكن تركت لكم أثراً يغنى عن جميع الكتب ، وهو محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » .

وحينما أنزل السيد جمال الدين الأفغانى إلى الباخرة فى السويس لم يكن معه من المال إلا ثلاثة جنيهات وبضعة قروش ، فجاء صعاليك الاحتلال وشياطين الاستعمار ، وأرغموه

على تسليم ذلك المبلغ الزهيد إليهم ، وتركوه بلا مليم واحد ، ولما علم بذلك قنصل إيران بالسويس سارع بالذهاب إلى الباخرة ، وتقدم من السيد وأعطاه مائة دينار على سبيل الهدية ، ولكن السيد جمال الدين ثارت فيه عزة العالم الأبى ، والمجاهد العالى الهمة ، فأبى أن يأخذ من القنصل شيئاً ، وأجابه قائلا :

« احفظوا المال فأنتم إليه أحوج ، أما الليث فإنه لا يعدم فريسته حيثما ذهب » ! ! .

ومن المضحكات المبكيات أن رجال الحكومة فى مصر المحتلة جمعوا كتب السيد فى اليوم التالى لسفره من منزله ، بعد أن نهبوا منها مانهبوا ، وكانت كثيرة جداً ، ووضعوها فى صناديق ، وأرسلوها باسم السيد إلى إيران ، ظنا منهم أنه سيتجه إليها ، ولكن الكتب ذهبت إلى هناك ، فلم تجد صاحبها ، فظلت فى « الجمرك » حتى أتت عليها الحشرات والديدان ! ! .

ولقد كان السيد جمال الدين أثناء إقامته فى مصر يهدى إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، كما كان يحرض على الجهاد والنضال ، ومن أمثلة ذلك تلك الرسائل التى كان يبعث بها إلى أصدقائه وتلاميذه ، يذكرهم فيها بما يجب عليهم ، وهذا جزء من رسالته لمحمد المويلحى ، وفيه يقول :

« ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ويصلحون أمرا ، وكن عونا للحق ولو على نفسك ، ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عجبك . لا نهاية للفضيلة ، ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام » .

***

وقد أقام السيد جمال الدين ثلاث سنوات فى الهند ، فى هذه الرحلة الثالثة إليها ، منها سبعة أشهر قضاها سجينا ، تحت عنت الاحتلال البريطانى الذى حرمه من كل شىء حتى من البريد ، ومن قراءة الصحف ، ومطالعة الكتب العلمية ، والاتصال بأى كائن ، ثم تمكن أخيراً من مغادرة الهند إلى أوربا نفسها ، وإلى ( لندن ) عاصمة إنجلترا بالذات ، كأنه أراد أن ينازل الوحش فى وكره ، بلا خوف أو مبالاة ، ولكن الإنجليز الذين بدوا لئاما وهم ضيوف ، أو دخلاء فى بلاد سواهم ، كانوا أشد لؤما وخساسة فى معاملة ذلك المجاهد العظيم ، فأساءوا التضييق عليه فى كل ناحية من نواحى حياته

الخاصة والعامة ، وأرغموه بوسائلهم الدنيئة على مغادرة بلادهم ، فتركها وتوجه إلى باريس ، وهناك بدأ يكتب فى الصحف والمجلات الفرنسية ، مهاجما الدول الاستعمارية وفى مقدمتها بريطانيا ، والتقى بكثير من عظماء المفكرين الفرنسيين أمثال « رينان » و « هانوتو » . وجرت بينه وبينهم مناظرات ومحاورات عن الإسلام الحنيف وصلته بالعلم ، وقد كان له فى جميع هذه المساجلات الفوز الساحق ، حتى اضطر « رينان » وهو من هو أن يقول فى السيد جمال الدين ما يلى :

« يخيل إلىّ — من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه أننى أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من الفلاسفة القدماء ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحد من عرفتهم من أساطين الحكمة الشرقيين الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

ثم أراد السيد جمال الدين أن يعمل فى أوربا عملا ذا بال لخدمة الإسلام والعروبة والشرق ، فأرسل إلى تلميذه وصديقه الإمام الشيخ محمد عبده خطاباً يرجوه فيه أن يسارع بالحضور إلى أوربا ، وقد كان الإمام حينذاك منفياً فى بيروت ، مع نفر من كرام المجاهدين المصريين ، بسبب الثورة العرابية المشهورة ، فسارع الشيخ محمد عبده بالسفر إلى أستاذه ومرشده ، والتقيا فى باريس عاصمة فرنسا ، وأنشأ السيد جمال الدين جمعية « العروة الوثقى » التى اشترك فيها كثير من مسلمى مصر والهند وسوريا وشمال أفريقيا وغيرهم ، وجعلوا الرياسة فى هذه الجماعة للسيد جمال الدين ، وتكتموا أمرها ، فاتفقوا على قانون خاص بها ، كان مؤلفاً من مواد كثيرة ، ولكنهم لم يطبعوه ولم ينشروه ، خيفة أن يستغله غيرهم استغلالا سيئاً ؛ وكان كل شخص ينتسب إلى الجمعية لا يصبح عضوا فيها إلا إذا أقسم هذا القسم :

« أقسم بالله العالم بالجزئى والكلى ، والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمن كتاب الله فى أعمالى وأخلاقى ، بلا تأويل ولا تضليل ، ولأجيبن داعيه فيما دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا نهى ، ولأدعون لنصرته ، ولأقومن بها مادمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا .

أقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى ، المصرف لإحساس وجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن مافى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية ،

ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى ، وانتظم فى عقد من عقودها ، ولأراعينها فى غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد مايضر بشوكة الإسلام ، فإنى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسى فى أثره مثل ما آخذ عليها فى المدافعة عن شخصى .

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى ، ألا أقدم إلا من قدمه الدين ، ولاأؤخر إلاماأخره الدين ، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين ، جزئياً كان أو كلياً ، وألا أخالف أهل العقدالذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه . وعلىّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة ، بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها ، بقدر مايسعه إمكانى الوجودى. وأسأل الله نجاح العمل ،وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه » !!...

إنه لقسم لوتعلمون عظيم ، بل هو دستور يرسم للمجاهد المسلم طريق العمل النافع الخالص لوجه الله والإسلام ، ثم يحرضه على تنفيذه وتطبيقه إذ جعله أمانة فى عنقه ، ووثقها بذلك القسم الجليل ، وليت كل راغب فى الانتساب إلى جماعة من جماعات الإسلام ، أو رهط من رهوط الإصلاح ، يقرأ هذا القسم قبل انخراطه فى تلك الجماعة ، ويتدبر معانيه طويلا ، فإن وجد من نفسه القدرة على تنفيذه والالتزام به ، أقبل وتحمل الأمانة ، وإلا جاهد نفسه جهاداً طويلا قبل أن ينضم إلى الصفوف !! .

ثم أتبع السيد جمال الدين إنشاء هذه الجمعية المباركة التى كان لها فضل السبق فى إحياء المسلمين من رقادهم الأخير بإنشاء مجلة عربية إسلامية سماها باسم الجمعية نفسها ، فكانت لسان حال لها ، وكان لتلك المجلة من القوة والفتوة ، والثورة والحماسة ، والبلاغة وشدة التأثير ، ما جعل فرائص المستعمرين والأوربيين ترتعد منها خوفاً وفزعاً ، فحاربوها فى كل مكان ، ووقفت لها إنجلترا اللئيمة فى كل مرصد ، ومنعتها من الدخول إلى كثير من أقطار الشرق والعروبة التى تحتلها ، وتحكمها بسلطان الحديد والنار ، ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت أعداد مجلة العروة الوثقى سياطاً قاسية ، تنزل على جلود الطاغين فتمزقها شر ممزق ، وكانت نوراً ساطعاً يكشف خفايا الاستعمار وبلايا الاحتلال ودسائس القراصنةمن الإنجليز ، وكانت فى الوقت نفسه جذوة مشتعلة من الحماس الوطنى والدينى ، فهى تذكر كل مسلم بواجبه ، وتحذره من الإهمال فيه ، ومن أمثلة ذلك

هذه القطعة التى وردت فى بعض مقالاتها : « ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه ! ملعون من يبيع ملته بحطام يلتذ به . . ملعون من يمكن الأجانب من دياره ! محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم الصغير ، ويصغر العظيم ، ويمهد الطرق لخفض كلمته ، وإعلاء كلمة الأغراب . ملعون من يختلج فى صدره أن يلحق عاراً بأمته ليتم ناقصاً من لذته ! ! .

« عجباً عجباً ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة ، وخمسة ملايين لاحقة ، تمكن الأجانب من مصر وهى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية ؟ . هيهات هيهات . . أيظن مريض القلب أن يترك حتى يأتى هذا المنكر ؟ . أيظن أنه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ؟ . أيتوهم أنه يبقى حياً على وجه الأرض وفيها مسلم؟ لا أظن أن يكون له حظ من البقاء ولو كان فى أبراج من الفولاذ » ! .

ولكن هذه المجلة مع شديد الأسى والأسف لم تستمر طويلا ، ولم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً ، ثم قضى عليها الاستبداد الغاشم ، فطويت فى سجل التاريخ ، بعد أن رسمت الطريق لكل صحيفة إسلامية حرة تأتى بعدها .

وإذا كنا نذكر السودان ، وننادى بوحدة وادى النيل ، فيجب أن نذكر أن السيد جمال الدين كان له نصيب مشكور من الجهاد فى هذه السبيل ، ولقد حاول أن يستخدم الثورة المهدية فى السودان لتزحف إلى مصر ، فتبطش بالإنجليز فى الدلتا البطشة الكبرى ، ثم يخلص الوادى بعد ذلك لأهليه ، ولكن الأقدار لحكمة خفية لم تكتب لذلك المشروع الخطير التمام ! . .

* * *

وتنقل السيد جمال بعد ذلك فى إيران وروسيا ، وهو يخدم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بقلمه ولسانه ، وصداقته لكبار السلاطين والحاكمين ، ثم قصد إلى العراق الشقيق ، تاركا شاه إيران بعد أن أصلاه ناراً حامية من نقده ، ومؤاخذته له على سوء سيرته فى الرعية ، وإهماله لشئون الشعب الهامة .

وفى هذه الفترة حدث حدث جليل فى إيران ، إذ أن الشاه أعطى المستر ( تالبوت ) فى مارس سنة ١٨٩٠ م احتكار التنباك الموجود فى إيران لمدة خمسين سنة ، ليتحكم فى رقاب الشعب الإيرانى كما يشاء . . . فغضب السيد جمال الدين لتلك الجريمة ، وقد كان وقتئذ منفياً فى العراق ، فأخذ يهاجم شاه العجم ، ويكتب ضده

فى الجرائد والمجلات ، ويخطب منددآ بسياسته الضعيفة المتخاذلة فى النوادى والجمعيات ، ويبين مخازيه وأعماله بصورة تقشعر منها الأبدان ، ثم كتب جمال الدين إلى كبير مجتهدى الشيعة بإيران ، وهو الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازى — ومنصبه كمنصب شيخ الإسلام ، أو قاضى القضاة ، أو مفتى الدولة — كتب إليه كتاباً طويلا سرد فيه كثيراً من مخازى الشاه ، وحرّض القاضى الأكبر عليه ، ورجاه أن يقول فى أعمال الشاه كلمة الشرع والحق ، ومن ذلك الخطاب قوله له :

« وإنك أيها الحجة إن لم تقم بناصر هذه الأمة ، ولم تجمع كلمتها ، ولم تنزعها بقوة الشرع من يد هذا الأثيم ، لأصبحت حوزة الإسلام تحت سلطة الأجانب ، وأنت تعلم أن علماء إيران كافة ، والعامة بأجمعهم ينتظرون منك ، وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم ، كلمة واحدة ، يرون سعادتهم بها ، ونجاتهم فيها » ! ! .

وقد استجاب قاضى القضاة لنصيحة جمال الدين ، فبعث بخطاب واعظ زاجر إلى الشاه ، يطلب فيه العدول عما اجترحته يده من مآثم وجرائم فى حق الدين والوطن ، فلم يطع الشاه نصيحة القاضى الأكبر ، وضاعف انتقامه وإجرامه ، بأن أخذ يسجن المصلحين ويشرد العلماء ، وينكل بطلاب الحق من كبراء الدولة ، فأراد القاضى أن ينقذ الأمة الإيرانية من « ورطة » احتكار التنباك ، فأصدر فتواه المشهورة بتحريم التنباك ، مع أن التنباك يزرع فى إيران ، والأغلبية الساحقة من الشعب قد تعودت عليه أجيالا طويلة ، فلا تستطيع الاستغناء عنه بحال من الأحوال ، ولكن الشعب الإيرانى رغم هذا كله سمع فتوى القاضى الأكبر فاحترمها وأطاعها ، ونفذ ما فيها ، فامتنعت الأفراد عن تعاطى التنباك بتاتا ، وحطموا أدوات شربه ، ورموا بقاياه التى كانت عندهم فى الشوارع ، وأغلقت مخازن التنباك أبوابها ، وتعطلت تجارته نهائيا ، وأصبحت لاترى إيرانيا واحداً يدخن هذا التنباك اللعين ... ومن لطيف مايذكر فى هذاالمقام أن الشاه أراد فى اليوم التالى أن يدخن نارجيلة التنباك الخاصة به ، وكان معه بعض وزرائه ، فطلب النارجيلة من رئيس خدمه ، فعجب رئيس الخدم وقال للسلطان :

لقد صدرت يامولاى فتوى حجة الإسلام بالتحريم ، فلم يبق فى القصور الملكية نارجيلة ولا تنباك ! ! .

فغضب الشاه ونهره قائلا : وهل استأذنت مولاك قبل ذلك ؟ . فأجابه رئيس الخدم بشجاعة وثبات : لقد أمر الشرع يا مولاى . فلا حاجة بنا إلى استئذان السلطان ! ! .

الله أكبر ! . . هكذا يكون جلال العلماء وصدعهم بكلمة الحق ، وهكذا تكون استجابة الرعية لرأيهم ونصيحتهم ، وهكذا يكون الاعتزاز بكلمة الله التى يذل أمامها كل جبار فى الأرض ... فإنه لم يسع السلطان حين سمع هذا الرد إلا أن يسكت على مضض ، وإلا حُكِم بكفره ، ونودى بخلعه . .

قالوا ولم تمض شهور قلائل على إصدار القانون بذلك الاحتكار الأثيم ، حتى اضطر الشاه واضطرت حكومته ، واضطرت أذناب الاحتكار من الإنجليز إلى مراجعة القاضى حتى يعدل عن فتواه فلم يقبل ، وازداد الحال سوءا ، فرأوا إنقاذاً للموقف أن يصدر قرار آخر بإلغاء قانون الاحتكار ، وبذلك فازت كلمة العلماء ، وفازت إرادة الأمة التى تعرف كيف تستجيب لربها وعلمائها ، وتقف فى وجوه الطاغين ! ! .

إن حادثة التنباك هذه تعلم الشعوب المستضعفة المغلوبة على أمرها كيف تكون المقاومة السلبية ، وكيف تستطيع عندما يتحكم فى أرزاقها ظالمون أن تفل أسلحتهم ، وترغمهم على إطاعة إرادتها صاغرين ، فليت الذين لم يتعلموا يتعلمون من هذا الدرس الجليل ! . .

وقد كان للسيد جمال الدين الأفغانى فى كتابته وخطبه وأحاديثه أسلوب قاس زاجر ، يتدفق بالحم ، ويقذف باللهب ، فهو لا يلين فى خطابه حين الجد ، بل يصب شواظ الحق على رماد الباطل فإذا هو هباء وهواء ، فانظر إليه مثلا حين يخاطب الهنود ، ويحرضهم على منازلة الإنجليز الحقراء ، فيقول :

« لو كنتم يا مئات الملايين من الهنود ذبابا ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل فى آذان كبيرهم المستر غلادستون وقرا ! . . لو كنتم يا مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله ، فجعل كلا منهم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القاع ، وعدتم إلى هندكم أحرارا » ! ! .

وانظر إليه إذ يخاطب فلاح مصر المصطلى بنار الاحتلال الغاشم والاستعمار الظالم فيقول له : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض ، لتستنبت ما تسد به الرمق

ويقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلوب المستعمرين ؟ . لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » ! .

وانظر إليه إذ يتفجع على حاضر المسلمين الذليل ، ويحن إلى ماضيهم المجيد ، ويبكى على الأيام العزيزة التى كانت لهم ، ويتأسف على العهود الذليلة التى صاروا فيها ، فيقول :

« بكائى على السالفين ، ونحيبى على السابقين ، أين أنتم ياعصبة الرحمة وأولياء الشفقة ؟ أين أنتم ياأعلام المروءة وشوامخ القوة ؟ أين أنتم ياأهل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة ؟ أين أنتم ياخير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ؟ . . ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ؟ . . . انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقتكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا ، وتحترق الأكباد حزنا . . . أضحوا فريسة للأمم الأجنبية ، لا يستطيعون ذودا عن حياضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم ! ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال إلى سواء السبيل ؟ ! » .

وقد لاقى السيد جمال الدين فى سبيل هذه الجرأة كثيرا من المصاعب والمتاعب ، والآلام والنوازل ، فهو بسببها قد قضى حياته منفيا مشردا ، كأنه موكل بفضاء الأرض يذرعه ، ليس له بيت دائم ، ولا زوجة تخفف عليه أعباء الحياة ، ولا أولاد ينعم برؤياهم ، ولا ضيعة يستغلها ، قد يبيت فى مصر ، ويصبح فى الشام ، وفى اليوم الثالث يكون فى العراق ، وهكذا . . حياة كلها حل وترحال ، وتنقل وتبدل ، وشظف وخشونة ؛ ومن أمثلة ما لاقاه فى سبيل شجاعته وجرأته أنه كان يحرض شاه إيران وسلطانها على أن يمنح أمته الدستور ، فحاوره السلطان فى ذلك قائلا :

« أيصح أن أكون ياحضرة السيد وأنا ملك من ملوك الفرس ، كأحد أفراد الفلاحين فى الحقوق والواجبات ؟ » .

فأجابه جمال الدين قائلا :

« اعلم يا حضرة الشاة أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى عليه الآن!! ».

فغضب عليه الشاه غضبا شديدا ، وأخذ بقوته يبطش به ، فأرسل إليه أثناء الليل فرسانه ، فانتزعوه من فراشه ، بلا إنذار أو إمهال ، وأهانوه إهانة لا تكون إلا من سفلة الجند لحقراء المجرمين ؛ وقد أجمل السيد وصف هذه النذالة بقوله :

« وسحبونى على الثلج إلى دار الحكومة ، بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة ، ثم حملنى زبانية الشاة وأنا مريض على برذون ، مسلسلا ، فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتنى جحفلة من الفرسان إلى ( خانقين ) على الحدود العراقية » ! .

ولكن هذا التعذيب لم يقهر جمال الدين ، ولم ينل من قوة شكيمته ومضاء عزيمته ، ويكفى أن تعرف مصداق هذا حين تعلم أن الشاه أحس بخطر جمال الدين على سلطانه ، مع أنه كان بعيداً عنه فى لندن ، فأرسل إليه سفيرا يرجوه أن يكف عن مهاجمة الشاه ، وهو يضمن له العيش الرغيد ، فأبى جمال الدين ذلك العرض السخى ، وأجاب السفير فى صرامة وثبات : « والله لن أرضى إلا أن يُقتل الشاه وتبقر بطنه ، ويوارى فى القبر » ! ! . .

وكأنما كان السيد جمال الدين يتحدث حينئذ بصوت المظلوم ، الذى ليس بين دعوته وبين الله حجاب ، فقد وقع ما تنبأ به ، وازداد سخط الشعب على الشاه ، فانقض عليه أحد تلامذة جمال الدين ، وطعنه بمدية قاتلة ، وهو يصيح مخاطبا الشاه حين سقط على الأرض

« خذها من يد جمال الدين » ! ! .

وحين بلغ مصرع الشاه إلى جمال الدين قال : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت ، وأنها أمة لن تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ، ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة » ! . .

ومما يدلك على عظمة جمال الدين ، واعتراره بشخصيته ، ومعرفته لمقدار نفسه ؛ أن سلطان تركيا استدعاه إلى الآستانة ، ليكرمه ويستشيره ، فأجابه بعد تردد طويل ، واعتذار بالشواغل والأعمال ، وفى مرة من المرات قال السلطان لجمال الدين : « إن

سفير العجم ترجانى أن أتكلم معك فى الكف عن الوقيعة فى الشاه ، وبناء على أملى فيك وعدته بأنك ستكف عنه » .

فأجابه السيد جمال الدين : «ما كنت ناويا أن أترك الشاه حتى أنزله فى قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه فلا بد من طاعته ، وسأعفو عنه » ! . .

فإذا بهذا الجواب يبهر السلطان فيقول لجمال الدين : « يحق للشاه أن يخاف منك خوفا عظيما » ! . . .

والحادثة الثانية لن تكون مع شاه العجم ، بل ستكون مع سلطان تركيا نفسه ، مع الذى يقول عنه جمال الدين إنه أمير المؤمنين ، وإنه لا يمكنه أن يعصاه ؛ فقد حدث أن أراد جمال الدين ذات يوم مقابلة السلطان التركى فى أمر من الأمور ، فلم يستطع ذلك ، إذ قالت الحاشية له : إن السلطان مشغول ، ولا يستطيع الآن مقابلة أى إنسان ؛ فاحتد جمال الدين وغضب لكرامته التى حسب أنها قد أهينت وديست ، فقال لهذه الحاشية : لن أعود إلى مقابلته بعد ذلك ! . . .

وبعد قليل علم السلطان بالحادث فأراد أن يرضيه ، فبعث إليه ليقابله ، فرفض جمال الدين الشريد الفار الهارب ، الذى لا يملك من السلطان أو المال شيئا ، رفض أن يقابل السلطان ؛ وقال : هذه بتلك ! . . . وبعد هذا استراحت نفسه ، وخيل إليه أنه قد ثأر لشخصه ، وانتقم لكرامته المهانة ، ثم جرى سعراء الخير والإصلاح بين السلطان وجمال الدين حتى عادا إلى سابق عهدهما من المودة واللقاء ! ! .

والواقع أن الصلة بين السلطان وجمال الدين كانت صداقة على دخن ، فقد كان السلطان يرهب جمال الدين كل الرهبة ، ويخاف قلمه ولسانه ، ويخشى أن يجد فى البعد عن تركيا متنفسا ينال فيه من السلطان ، ويندد بأعماله ، ولذلك حاول السلطان أن يستبقى جمال الدين إلى جواره بكل وسيلة وحاول جمال الدين أن يتخلص من أطواق السلطان الذهبية فلم يستطع ، ثم دس السلطان حول السيد كثيرا من العيون والأرصاد والجواسيس ، يحصون عليه كل كلمة ، ويقيدون كل همسة ، ويتربصون به الدوائر ؛ وأضيف إلى ذلك أن كثيرا من الذين يأكلون الدنيا باسم الدين من أذيال العلماء فى تركيا أخذوا يفترون على السيد جمال الدين الكذب ، فتارة يرمونه بالإلحاد والزندقة ، وتارة يرمونه بالتهاون فى أمور الدين ، وتارة يحرفون كلمه عن مواضعه ، ويفسرونه

تفسيرا ظنينا مدخولا ، مما جعل جمال الدين يقضى أيامه هذه فى تركيا ، وهو أشبه شىء بالأسد قيد بالأغلال الفضية ، ووضع فى قفص ذهبى جميل ، ولكنه مع هذا يحرمه من الحرية والانطلاق ، للصيال والنضال ! ! .

ثم جاء الأجل ، وحم القضاء المحتوم ، فأصيب السيد جمال الدين بالسرطان فى فكيه ، حتى منعه ذلك عن الكلام ، وهو الذى كانت تهتز المنابر من بلاغته ، وترتعد الفرائص من صوته ... وهناك روايات كثيرة ، جديرة بالتحقيق والاعتبار ، تقول إن أعداء السيد جمال الدين من أتباع السلطان وأنصار شاه العجم قد دسوا عليه صعلوكا حقيراً من حقراء الطب ، ليعالج له أسنانه فى الظاهر ، ثم توصل بسمومه فى الخفاء إلى إصابة السيد بداء السرطان الخبيث ، وحاول السيد أن يعالج نفسه من هذا الداء بوساطة طبيب يثق فيه ، وطلب ذلك فعلا ممن حوله ، فلم يحققوا له ما أراد ، بل ساقوا إليه طبيباً آخر من حاشية السلطان ، أجرى له عملية قيل عنها إنه لم يراع فيها الشروط الطبية ، ولا الطهارة الكافية ، ولا العناية اللازمة ، مما جعل الألم يتضاعف ، والداء ينتشر ؛ واستلقى ذلك العملاق الذى هابته الملوك ، وخشيته السلاطين ، على فراشه ، كما يستلقى الجواد الطعين فلا يستطيع الحركة ...

وليت شعرى !.. أية أفكار حزينة ، بل أية أشباح وخواطر ، وذكريات وخيالات كانت تمر بذهن جمال الدين الجبار وهو نائم تلك النومة التى ما كان يريدها ، وما كان يرغب أن تختم بها حياته ، فقد كان يريد أن يموت فى ميدان ، أو من فوق منبر ، ولكن هكذا شاءت الأقدار . وما أشبه موقفه بموقف خالد يوم جاءه الموت على فراشه وهو بطل المواقع وفارس الغزوات ، فاستعبر وقال :

« لقد شهدت سبعين زحفا أوزهاءها ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه طعنة بسيف أو ضربة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى ، كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » !.

وتجمعت خساسة الدساسين ، وإهمال المخالطين ، وجريمة المفرطين ، فى خدمة الأقدار ، لتحقيق ماتريد ، فصعدت روح جمال الدين الأفغانى إلى بارئها فى اليوم التاسع من مارس سنة ١٨٩٧ م .

* * *

مات الأسد فلم يعد له زئير ، ولا لبد ، ولا أظافر ، ولا صولة أو جولة ، ومع ذلك خاف بأسه أولئك الطغاة ، فإذا بولاة الأمور يومئذ فى تركيا يخفون جنازته عن أحبابه

وأصحابه ، وأمرت بتشييع جثمانه بلا احتفال أو اجتماع ، وحتمت على الصحف التركية أن لاتذكر حرفا واحداً عنه ، بل ولم تبلغ خبر موته إلى هذه الصحف ، وصادرت بعض النشرات التى وصلها النبأ الفاجع ثم تحدثت عنه !!.

ثم بالغوا فى انتقامهم من السيد حتى بعد وفاته ، فدفنوه فى مقبرة حقيرة مجهولة ، ولم يجعلوا عليها أو حولها مايشير إلى صاحبها ، وظلت هذه المقبرة مجهولة سنوات وسنوات ، حتى جاء رجل أمريكى اسمه ( المستر كراين ) فى سنة ١٩٢٦ م ، وظل يبحث عنها حتى اهتدى إليها ، فجددها ووضع عليها مايعرّف المارين أو الزائرين بصاحبها ، وهكذا عرف الغريب البعيد حق العبقرية فأداه ، بينما جحده أولئك الذين كانوا أولى الناس بتمجيده وتخليده !! .

***

هذه لمحة عن جمال الدين الأفغانى الذى جاء على حين فترة من المصلحين المخلصين . فأحيا موات الأمة الإسلامية ، ونبه فى الشرق عوامل النهوض ، ووقف فى وجه الطغيان يقاومه أينما كان ، وقضى حياته شريداً طريداً ، محروما من نعمة الهدوء والاستقرار ، ولكنه بجهاده ونضاله قد كتب اسمه فى سجل الخالدين من الأبرار ؛ وإن فى حياته ومماته لعبرة أى عبرة ، ودرسا أى درس للذين يريدون أن يعرفوا طريق العزة ، فاعتبروا يا أولى الأبصار !...

# ذكرياتى عن التدخين

معذرة إذا تحدثت عن نفسى ، فقصصت جانباً من ذكرياتى فيما يتعلق بالتدخين ، وهذا لا يعنى أننى رجل ذو تاريخ ، فإننى ما زلت فى سن الشباب ، ولكن الموقف هو الذى يفرض أن أتحدث عن ذكرياتى التى بقيت فى خاطرى حول آفة التدخين المنتشرة الفاشية ، التى تعود على البشرية بمختلف الأضرار والأخطار . وأنا على الرغم من شبابى مدخن قديم ، ومذنب تائب ، وغريق كانت أمواج العادة السخيفة الأثيمة وهى عادة التدخين تتلاعب بى ، وتدنيئى من حتفى العاجل خطوة بعد خطوة ، ولكنى نجوت بفضل الله ورحمته .

ولعل المدخل التائب ، الذى جرب الدخان ، وأدرك ما فيه من سيئات ، يكون حكمه على هذه العادة أقرب إلى الصحة والحقيقة من حكم الشخص الذى لم يدخن ، ولم يجرب التدخين عمليا لمدة كافية للابتلاء والاختبار ، وكذلك يكون حكمه أصدق من المدخن الذى لا يزال واقعاً تحت تأثير التدخين ، والذى لا يدرك الفرق بين حالة التدخين وحالة تركه . . أما من ذاقه ثم أفلت من أسره فقد خبر الحالين ، وعرف الموقفين ، فكان بهما جد خبير .

فلندخل فى صميم الذكريات ، ولنعد إلى الوراء أعواما تزيد عن العشرين . . . فى ذلك الحين كنت غلاما أحاول حفظ القرآن الكريم ، لأنتسب إلى أحد المعاهد الدينية التى تتبع الأزهر الشريف ، فقد عاهد والدى ربه أن يجعلنى وقفاً على طلب العلم ، كما كانت العادة شائعة عند أهل الريف . .

وبعد أن حفظت القرآن الكريم ، رحلت من قريتى « البجلات » ، وهى من أكبر القرى فى مديرية الدقهلية ، إلى معهد دمياط الدينى العلمى الإسلامى ، ولبست العمامة والكاكولة ، مع أن عمرى لم يتجاوز يومئذ الثانية عشرة .

وكان نصيبى أن أسكن مع زميل يكبرنى بسنوات ، وإن كان متخلفا عنى

فى الدراسة ، وكان من المدخنين المدمنين ، الذين يبذلون أكثر أموالهم فى اللفائف ، فإذا ما دخن واعتدل مزاجه — كما يعبر — فعلى الدنيا بطعامها وشرابها ومتاعها السلام .

وكثيرا ما كان ذلك الزميل ينتهى من طعامه عجلا ، ثم يجلس على المقعد ، مسندا ظهره إلى مؤخرته ، فى تيه وخيلاء ، ثم يشعل لفافته ، ويمص دخانها بشفتيه ، بعد أن يتناولها بطريقة تمثيلية ، ويضعها فى جانب فمه ، ثم ينفث سحب الدخان فى جو الغرفة الضيقة الحقيرة ذات المنافذ القليلة ، وبيده مجلة أو كتاب يقرأ فيه بلا متابعة ، ونظراته الحالمة الزائغة تتردد هنا وهناك ، فيخيل إلى — لقلة تجاربى — أن سحب الدخان تتصاعد كأنها ألوية مجد أو شارات بطولة ، وأتوهم أن ذلك الزميل يجلس جلسة أمير أو عظيم ، وأننى لن أدرك العظمة والراحة إلا إذا اقتديت به ، وكنت مثله فى التدخين ! ! . . ولكننى كنت أعود فأستذكر قامة أبى الفارعة ، وكراهيته الشديدة للتدخين ، وحملته القاسية العنيفة على كل من يراه مدخنا ، كبيراً كان أو صغيراً ، وقسمه بأنه لو رآنى ، أو رأى أحد أبنائه يدخن ، لما كان له من جزاء سوى طرده من بيت الأسرة إلى الأبد . كنت أتذكر ذلك فأخاف ، وأرتد عن الإقدام على التجربة . .

ووسوس الشيطان ذات يوم لصديق ، فجعل يغرينى على التدخين ، ويذكرنى بالحرية الشخصية ، ويقول لى إن التدخين شعار الرجولة ، وسبب الهدوء والراحة ، وهو الذى يزيل الهموم ، وينظم التفكير ، وينشط الذهن ، ويقضى على الاضطراب والحزن ، ويبعث على الإبداع فى الخيال ، ويحرك القلم إلى إنتاج الأدب . . وتبرع — عفا الله عنه ، وغفر له ما قدمت يداه — فأتبع تشجيعه القولى بتشجيعه العملى ، فأعطانى ذات يوم لفافة بالمجان ، لأشربها على سبيل التجربة ، بعد أن استنفد كل وسائل الإغراء فى تزيينها وتحبيبها إلى ، فأخذت اللفافة وأشعلتها ، وأقبلت عليها أدخنها بلا وعى ولا تدبير .

أحسست حين ذاك بدوار فى رأسى ، وضيق فى تنفسى ، وازدياد فى حرارة جسمى ، وغليان فى دمى ، وغشاوة فى عينى ، فلا أكاد أبصر ما أمامى ، وخيل لى أن الحجرة قد ضاقت بى فكأنها قبر ... وشكوت إلى الصديق ما أجد ، فهون علىَّ الأمر

وابتسم لى ، وقال : لا تخف ، فأنت الآن فى دور التجربة والتمرين ، ولن تدرك لذة التدخين إلا إذا تعودت عليه ، وعرفت كيف تبلع الدخان ، وكيف تقسم نفثه بين فمك وأنفك ، وذلك لن يتم لك إلا إذا صرت من المدمنين ! ! .

وأخذ الزميل — غفر الله له — يواصل إغراءه لى يوما بعد يوم ، فأحياناً يعطينى سيجارة كاملة ، وأحياناً « نخمس » ، أى يأخذ من اللفافة خمسة وآخذ خمسة ، أو بمعنى آخر نقتسمها فيما بيننا ، وهكذا .

ومضت فترة من الزمن وأنا أوهم نفسى بما أزعمه — أو يزعمه لى زميلى — من لذة التدخين وتقويمه للمزاج ، وبعدها قلت لنفسى : إلى متى سأظل عالة على غيرى ؟ وإلى متى سأظل أدخن على حساب زميلى ؟ . وكيف أكون « كيفاً » ثم أخاصم « الدكان وبائع الدخان » ؟. لابد من الاسترجال ، ولابد من إظهار الفتوة «والصبوة» ! وسعت بى قدماى لأول مرة فى حياتى إلى بائع الدخان ، وأنا أؤخر رجلا وأقدم أخرى ، واشتريت علبة لفائف بقرش صاغ ، فقد كان الدخان الملعون رخيصا يوم ذاك ؛ وليت يدى قطعت يوم امتدت إلى هـذا الشراء ، بل ليت رجلى شلت يوم سعت بى إلى هذا الوباء ، فقد كتبت على نفسى صك الشقاء بهذا البلاء الممثل فى ذلك الداء !.

* * *

وجدَّت فى الطريق مشكلة أخرى ، فكيف السبيل إلى حلها ؟ . إننى أستطيع أن أدخن فى الحجرة مع زميلى دون أن يرانا أحد ، ولكننا نقضى أغلب يومنا خارج الحجرة ، وشهوة التدخين تتملكنا فى كثير من الأحيان ، فكيف لى بالتدخين إذا كنت بين زملائى فى المعهد ، أو كنت على مرأى من شيوخى وأساتذتى ؟. الويل لى كل الويل إذا عرف عنى واحد من هؤلاء أننى من شاربى الدخان ؛ وإلا كتبت عندهم فى قائمة المجرمين الآثمين ! . . نعم الويل كل الويل لى إذا فعلت ذلك ، فقد كنت يومها فى بيئة محافظة ، هى أشبه بالبيئة التى يتحدث عنها الأستاذ المازنى فى كتابه : « خيوط العنكبوت » حين يسرد بعض ما حدث له أثناء تجربته لشرب الدخان فى شبابه مع أصدقائه من التلاميذ فيقول :

« إذا شاقنا الدخان ، واشتهينا أن نقلد الرجال ، اكتتبنا بالملاليم ، وجمعناه قرشا نبتاع به علبة فيها عشر سجائر ، نقتسمها بالحق ، ونبغى لنا مكانا غير مطروق ندخنها فيه

— كما يفعل الحشاشون الآن — حتى إذا صارت أعقابها على الأرض ، ذهبنا نمحو أثر التدخين من أصابعنا وأفواهنا ، فأما أيدينا فنغسلها ، ونفركها ، ونكاد نسلخ جلدها ، وأما أفواهنا فنعالجها بالقرنفل ، أو «السنسن» ، والأول أفضل لأنه أرخص ، ثم يقبل بعضنا على بعض ، فهذا يفتح فمه على آخره ، وذاك يمد أنفه ليشم به ، حتى نطمئن ، وهيهات ، فما كنا نجرؤ مع ذلك كله أن نخاطب أهلنا من قرب ، لئلا يشموا رائحة الدخان » ! .

نعم كنت فى بيئة لا يزال فيها مسكة من الخجل والحياء ، ولذلك كنا نلاقى الشدائد فى إيجاد المكان المناسب للتدخين ، حتى لا نُضبط متلبسين بتلك الجريمة ، فتارة يختفى الإنسان فى المرحاض ، وتارة يلجأ إلى الحقول البعيدة ، وتارة يهرب من يومه المدرسى ، لينزوى فى ركن قصى يدخن فيه تلك اللفافة اللعينة . . أما اليوم فقد عم البلاء وطم ، ورحل الحياء فلا حياء ، فالشاب يدخن أمام زملائه ، وأمام أساتذته ، وأمام والديه ، فإذا خوطب فى ذلك ثار وغضب ، وبكى لضياع الحريات والكرامات ! ! . .

وبتوالى الأيام أصبحت من المدمنين ، وكان التدخين بطبيعة الحال على حساب طعامنا وثيابنا وأخلاقنا ودروسنا ، فنحن نفضل شراء « السجائر » على شراء الغذاء الطيب ، ولنأكلْ فولا وطعمية وفجلا ، ثم لنشرب بعد ذلك سيجارة ، فهذا خير من اللحوم بلا سيجارة ! . . ولتتمزق جواربنا دون التفات إليها ، فإن ثمن الدخان كثير ، والموارد قليلة ، ولسنا من أبناء كبار الأثرياء ، فليس يفيض معنا بعد شراء «الكيف» ما نستطيع به شراء هذه اللوازم . . وأحيانا كان الشوق إلى السيجارة يطوف بالإنسان أثناء الدرس ، فلا يفهم من المدرس شيئا على الإطلاق ، وقد ينتحل الأعذار ليفر من الدرس بعيداً ثم يدخن لفافة ! ! . . .

وجنى التدخين على أخلاقنا ، فكان الواحد منا يثور ويسب ويلعن ، ويخرج عن حدود الذوق وقواعد الأدب مع زملائه ورفقائه ، إذا لم يعدل « مزاجه » فى مواعيده ، أو حاول أحد أن يحول بينه وبين التدخين ، ولو على سبيل المزاح ، لأن تعاليم المدخنين تقول : « الهزار فى كل شىء إلا فى السيجارة » ! .

وجنى التدخين على دروسنا ، فقد كان يُطلب منا أحيانا أن نشترى بعض الكتب ، أو الأدوات اللازمة لدروسنا فنماطل ونسوف ، لأننا نحب التدخين ، وهو يستولى على

أكثر « المصروف » ، فلتذهب الدروس ، ولتحرق الكتب ، مادامت علبة السجائر موجودة فى الجيب وهى عامرة ، أو نصف عامرة على الأقل ! . .

* * *

وكنت أثناء إقامتى فى دمياط بعيدا عن أهلى وأسرتى فى « البجلات » ، ولكن العام قد انصرم ، والامتحان قد انتهى ، والعودة إلى القرية قد حلت ، فكيف السبيل ؟ ! . وماذا يكون الموقف لو عرف والدى أننى أدخن ؟ ! . . إن لأبى سلطة الوالد الريفى الذى يرى من حقه ، بل من واجبه ، أن يؤدب أولاده بالضرب والطرد والحرمان من كل شىء ، والتكليف بمرهق الأعمال عند الإذناب أو الإهمال ، فكيف السبيل ؟ ! .

لو أننى أفضت فى تبيان الأوقات والجهود والحيل والوسائل والأساليب والطرق التى كنت أبذلها وأفتنّ فيها ، وأتعب من أجلها ، وأضحى بالكثير فى سبيلها ، حتى تتهيأ لى فرص التدخين ، لطال الكلام سامعيه ، وأفزع المتدبرين فيه ، ولست أبالغ حين أقول إن الشباب الذين يدخنون ، ويوجدون فى بيئات محافظة ، يضيعون ما يقرب من نصف أوقاتهم فى الحصول على الدخان ، وتهيئة أمكنة التدخين ، والقيام بالتدخين نفسه بعيداً عن الأنظار والرقباء ؛ بينما كان يجب أن ينفقوا هذه الأوقات العزيزة الغالية فيما هو أجدى وأنفع ، ولكن أين من يسمع ؟ ! .

أذكر من بين الأمثلة الكثيرة أن شهراً من شهور الصوم مر على وأنا مع أسرتى فى القرية ، وكنت أتناول السحور كل ليلة مع والدى وإخوتى ، ثم أعود للنوم مع أخى الصغير فى حجرة خاصة ، فكيف أدخن « لأحبس » الطعام كما يعبر المدمنون ؟ . كيف ذلك وأنا لا أستطيع أن أدخن أمامهم ، ولا أن أدخن فى حجرة النوم ، لأننى أخاف أن يرانى أخى الصغير ، فينقل ذلك إلى أبى ، وهناك تكون الطامة ! . . .

أتعرف ماذا كنت أصنع ؟ . . كنت أذهب عقب السحور كل ليلة إلى المرحاض بحجة قضاء الحاجة ، ثم أغلق الباب علىّ بإحكام حتى لا تتسرب الرائحة ، ثم أدخن فى حذر وترقب ، وأنا أظن فى كل نأمة أو همسة رقيباً أو جاسوساً ، فإذا ما انتهت السيجارة أخذت فى العملية المرهقة ، وهى عملية التخلص من آثار الجريمة ، فأبدأ

بتهوية المرحاض ، بفتح بابه وإغلاقه مرات سريعة متتابعة ، حتى تزول الرائحة ، خشية من دخول فرد من الأسرة بعدى . . . وأظل بعد ذلك أنظف فى أصابعى وأسنانى بالماء ، حتى أظن أن الرائحة الخبيثة المنتنة قد زالت ، وبعد وقت طويل أعود إلى النوم ! ! . .

وذات يوم ضاقت يدى عن ثمن الدخان ، والويل للمدخن إذا فقد ثمن الدخان ؛ فقضيت يوماً أسود الجوانب مغبر الأنحاء ، وأنا مضطرب الأعصاب هائج الشعور ، لا أكاد أعقل ما يقال ، ولا أحكم ما أعمل ؛ وفجأة رأيت زميلا يدخن فهرعت إليه أسأله سيجارة ، وكان كزاً بخيلا ، فاعتذر بأنه لا يوجد معه غير التى يدخنها ، فسألته أن نقتسمها معا ، فقال فى غلظة : من فضلك لا تعكر على مزاجى ! . فنالنى من الحزى مالا أستطيع تصويره ، وكم يتعرض المدخنون لمثل هذه المواقف المحرجة ، وخاصة فى صفوف الصغار ، أو فى البيئات الشعبية التى لا يتهيأ لها دائما كل ما تريد ! . .

وكدت أتعلم من التدخين كما يتعلم مئات من المدخنين السرقة والاحتيال ، بل أصارح بأننى وقعت ذات يوم فى شىء من هذا القبيل ، ففى الليلة التى عُقد فيها قران أخى الكبير ، وكل إلى أن أقوم بمهمة توزيع السجائر على المدعوين فى الاحتفال ، جرياً على العادة السيئة التى ابتليت بها القرى المصرية ، وأعطانى أخى عدداً كبيرا جداً من علب السجائر ، فاحتجزت لنفسى من بين هذا العدد ست علب كاملة ، وأخفيتها فى مكان أمين ، وظللت أدخن منها مجاناً حينا من الزمان ! ! .

وعلمنى التدخين الكذب ، فقد بلغ والدى ذات يوم أثناء مدة تدخينى أننى أدخن ، فلم يصدق ذلك ، لأنه يعتقد فىّ الصلاح والصدق والأمانة ، ولكنه أراد أن يطمئن قلبه ، فدعانى إليه وسألنى : هل تدخن ؟ . . فكذبت عليه وقلت : كلا ! . . فقال : هل تقسم على ذلك ، فاندفعت فى البهتان وقلت : أقسم ! . . فصدقنى وتركنى ، ولولا التدخين ما ارتكبت هذه المعصية ، فقد ألجأنى التدخين اللعين إلى الكذب والحنث فى اليمين ، وعلى من ؟ . . على أبى الذى يثق بى كل الثقة . . وآه من تأنيب الضمير الذى ظل يرهقنى بجبروته مدة طويلة من الزمن كلما تذكرت هذه الخطيئة ! ! .

وعلمنى التدخين ضيق الصدر وقلة الصبر ، فأنا أثور لأقل سبب ، وأنا أمزق

ما بيدى من أوراق إذا استبنت فيها أى تشويش أو خطأ ، وأنا أضرب إخوتى الصغار إذا ما اقترفوا شيئا هينا كان يمكن علاجه بالنصح والإرشاد .

وعلمنى التدخين أننى كنت لا أحسن عملا من الأعمال ، ولا أتقن واجبا من الواجبات ، وخاصة فى الصيف ، فإذا بدأت عملا بعد التدخين أخذ العرق يتصبب من جسمى ، وأحسست بدوار فى رأسى ، وتهالك فى أعضائى ، وتراخ فى مفاصلى ، فإما أن أجنح إلى الراحة ، وإما أن أضع ضغثا على إبالة ، وأزيد الطين بلة ، فأعود إلى التدخين ! . . .

ثم مر على حين من الزمن أخذت فيه الشهادة الابتدائية من معهد دمياط ، ثم انتقلت إلى الزقازيق ، فأخذت من معهدها الضخم الشهادة الثانوية ، ثم انتسبت إلى كلية اللغة العربية — حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب — وكان قد مر على أثناء ذلك مايقرب من ثمانية أعوام وأنا أدخن ، حتى أصبحت عبداً ذليلا لعادة التدخين الضارة المهلكة ، لا أستطيع أن أنهض بعمل إلا إذا دخنت ، وياخيبتى فى واجباتى إذا لم أتمكن من التدخين ! ! . .

وأخذت أصابعى تصفر ، وأسنانى تسود ، وفمى تسوء رائحته ، وأخذ وزنى يخف ، وشهيتى للطعام تقل ، وقوتى الجسمية تتناقص ، ونشاطى يخمد ، فلا أثبت لنضال ، ولا أستطيع أداء عمل شاق ، ونسيت السرعة فى الجرى ، أى مع أننى كنت أمهره ، فقد ظللت زمنا أجيد لعب كرة القدم ، ومع ذلك أسكت على مصيبتى ولا أحاول الخلاص من بلوتى ، فكان حالى قريبا من حال المازنى حين يصور ابتلاءه ببلوى التدخين فيقول : « إذا كانت لهذا الدخان — أو التبغ أو الطباق كما سماه لى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله وكنت قد سألته عنه — أقول : إذا كانت لهذا الطباق مزية أو فائدة فلست أعرفها ، فما عرفت إلا ما أثمرته بى شجرته اللعينة من الآلام والمتاعب ، وقد تعلقت به وأنا صبى حدث ، ولكن أمى صرفتنى عنه برفق ولطف ، غير أنى مابلغت التاسعة عشرة حتى كنت قد اعتدته ، وبعد عام واحد حاولت مرة أن أدرك تراما ( وكنت على مسافة مئة متر منه ، أو حول ذلك ) فركضت ولكنى كففت ، لأنى تعبت ونهجت ولهثت كالكلب ! فتحسرت ، ثم ثرت فأخرجت علبة السجائر فرميت بها ، وآليت ألا أعود إلى هذا البلاء . واستطعت أن

أنقطع عن التدخين ستة شهور أو سبعة بلا عناء ، ثم عدت إليه شيئا فشيئا بفضل الإخوان ، فقد كان الواحد منهم يقدم لى سيجارة فأعتذر ، فيلح فأقبل . . وتكرر هذا فاستثير شوقى إليه ، ورجعت إلى شر مما كنت ، ولا زلت أدخن إلى الآن ، فلى إذا استثنينا الشهور الستة أو السبعة التى أشرت إليها ، إحدى وثلاثون سنة وأنا أدخن هذا السم ، ولا أستطيع أن أجزم بأن الدخان هو المسئول عما أعانى ، ولكنى أعرف أن صوتى أجش ، وصدرى خربان ، وقلبى متعب ، ومعدتى فاسدة ، وأعصابى تالفة ؛ وعقلى يقول لى : إنه من الخير الانقطاع عن التدخين ، ولكن أعصابى تخوننى ، ولا خير فيما يقوله الأطباء لى ، ومن دواعى الأسف أنه لا يوجد Agence يشترى منه المرء بديلا من هذه الأعضاء القديمة . وقد رأيت مرة رواية سينمائية فيها لص فاتك يتحمل عن زميل له جريمة ويبوء عنه بإثمها وعقابها . وقد سأله زميله فى ذلك فقال إنه قد وقع وانتهى أمره ، فإذا أرادوا عقابه على كل ما اقترف فسيخرج على الأقل بالسجن مائة سنة ، فماذا يضره أن تضاف إلى ذلك بضع سنوات أخرى . . وأنا أتعزى بمثل ذلك وأقول لنفسى إنه لا فرق بين أن يعيش المرء إلى الثمانين أو يقصر عن ذلك أو يزيد ، فلن يحس الذى يموت بما فاته أو نقصه ، وما دامت النهاية هى هذا الفناء المحتوم فقد استوى طول العمر وقصره ! . ولكن هذا كما ترى ليس إلا مغالطة ليس فيها عزاء جدى . لأنه متى كان لابد من الفناء فخير للمرء أن يعيش بصحة ، أو كما يقول المتنبى : ( آلة العيش صحة وشباب ) .

حاشية : متوسط ما أنفقه على التدخين يتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة فى الشهر ، وكان المتوسط قبل الحرب العظمى الماضية حوالى جنيهين ( قال المازنى كلامه هذا سنة ١٩٤١ م ) . فلو أنى كنت ادخرت ما أنفقه على التدخين فى إحدى وثلاثين سنة لكان لى الآن فيلا جميلة ، أنعم بالعيش فيها ؛ أليس كذلك ؟ ! » اهـ .

***

وازداد الحال سوءا حينما اختلطت فى آخر السنة الأولى من إقامتى فى القاهرة بجماعة من الأصدقاء الذين ينتسبون إلى الأدب ، ويسرفون فى التدخين ، وكنا نقضى الليل إلا أقله فى سهر قائم على المجادلة والمناقشة والمراجعة ، ولكن سحب الدخان لا تنقطع من جوه أبداً . فعلب الدخان موجودة بكثرة أمامنا ، وهى مفتحة لكل راغب

فى التدخين ، وأصنافها مختلفة ولكل منها مذاق خاص ، والرغبة فى التدخين لا تزال تتجدد ، فكان المكان الذى نجلس فيه يتحول من أجل هذا إلى مدخنة كثيبة سوداء ، وكنت أخرج من هذا السهر الطويل وأنا محطم القوى ، منهوك الأعصاب ، مصدوع الرأس ، متخاذل الأعضاء .

وكنت كلما فكرت فى ترك التدخين سيطر على الضعف الإنسانى المرذول ، وتراخت عزيمتى وإرادتى ، وأخذت أغالط نفسى ، فتارة أسوف وأؤجل ، وتارة أزعم أننى سأقلل من التدخين شيئا فشيئا حتى أتوب عنه نهائيا ، وهكذا دون فائدة أو جدوى !.

وفى ليلة لا تنسى ، خرجت من السهرة مع الرفقاء بعد أن أسرفت فى التدخين ، وأخذت طريقى إلى البيت وأنا فى منتصف الليل ، وصدرى حرج ضيق ، وأنفاسى تلهث ، ولكنى أعالج الداء بالداء فأواصل التدخين . . وبلغت المنزل ، وأخذت أقطع درجات السلم القليلة ، وكأننى أحاول تحطيم الجلاميد ، فكلما صعدت درجة أحسست الألم يتزايد ويتضاعف ، وما بلغت الباب حتى أخذت أدقه دقات عنيفة بيدى ورجلى ، لأوقظ الخادمة حتى تفتح لى فأرتمى على الفراش ، وكانت بقية السيجارة لا تزال فى يدى وأنا لا أشعر بها ، ولا ألقى إليها بالا ؛ وفجأة فُتح الباب ، وإذا صوت والدتى التى قدمت من الريف على غير ميعاد يلقانى لائما ومؤنبا ومهذبا ؛ بعد أن رأت السيجارة فى يدى ، وأدركتْ من حركاتى مبلغ ضعفى وتخاذلى ، وبدأت تتحدث حديث الوالدة الحريصة على مصلحة ابنها ؛ المخلصة فى نصحها ؛ وإذا هى تختم حديثها بذلك الإنذار الخطر : إننى لن أرضى عنك ما دمت تدخن ! .

ودارت بى الأرض الفضاء ، وتذكرتْ جرائم هذا الدخان اللعين معى ، وما جناه على من نكبات ، وتذكرت مكانة الوالدة فى نفسى ، ومنزلتها عند الله ، وكنت فى حالتى هذه على أتم الاستعداد للاستغفار والمتاب . فإذا بصوتى يتهدج كأنه نبرات باك حزين ، وإذا بى أعاهد فى صدق وعزم وإصرار على ترك التدخين إلى الأبد ، وإذا بى أخرج ما بقى فى جيبى من لفائف ، وأسحقها بقدمى ، وأقول ، وكأنى أهز الأرض كلها بقولى : لن أعود إلى التدخين ، وهذا عهد وميثاق ! .

وتمت المعجزة ، ورفعت عن بصرى الغشاوة ، وهديت بعد ضلالة ، ولم يمر على سوى أسبوع كنت فيه مضطربا بعض الشىء من جراء الانتقال من حال التدخين إلى حال التوبة والطهارة ، ثم استقمت بعد ذلك على الطريق ، فعادت إلىّ نضرة وجهى

وسرعتى فى عملى ، وزاد وزنى ، وتفتحت شهيتى للطعام ، وأصبحت قادرا على المشى الطويل والجرى العنيف ، وعاد لأسنانى لونها الطبيعى ، وزالت رائحة فمى ، وذهب الضيق عن صدرى ، وأصبحت متحررا من إسار العادة ، منطلقا من عبوديتى للسكيف ، وأنفقت ما كنت أنفقه فى التدخين على وجوه صالحة تنفعنى ، وبذلك كسبت ماديا وصحيا ونفسيا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

* * *

يا شباب الجيل الجديد ، إنها نصيحة مجرب ، وإنها لكلمات أخ مخلص ، فاحذروا التدخين اللعين ، فإنه نكبة لا يقدر ضرارها إلا من أصيب بها ، وإذا كنتم ترون كهولا قد اعتادوا التدخين ، وعجزوا عن تركه ، فأولئك أمة قد سبقت بما لها وما عليها ، ولم يعد فى عزائمها وقود .

أما أنتم ، ففيكم الأمل ، وفيكم الرجاء ، فاشكروا نعم الله عليكم ، واحذروا هذه المقابح والمناكر ، ولا تفرطوا أو تسوفوا ، فمعظم النار من مستصغر الشرر ، والله المسئول أن يجعلكم جنودا طاهرين مطهَّرين ، لتكونوا هداة هذا العالم الحائر المسكين .

# الربيع فى القرآن الكريم

الربيع هو فصل الخصب والنماء ، وموسم الجود والوفاء ؛ فيه تخصب الأرض ، وينمو الزرع ، وتجود السماء بمائها ، والآفاق بنسيمها وهوائها ، والطيور بغنائها ، والرياض بأزهارها ورياحينها ؛ وفيه يفى كل لون من ألوان الطبيعة بما يُنتظر منه ويرجى ؛ وفى الربيع يكتسى الكون كله بحلل شفافة رفافة ، زاهية باهية ، ناضرة عاطرة ، توشّيها وتنمنمها أفواف الرياض والغياض ، والأشجار والأزهار ، والجداول والأنهار ، والبواغم من الأطيار ، وكل مايستجيب لهتاف الطبيعة الفاتنة الساحرة ، عند الفرحة الكبرى ، والهزة المطربة ، والإحساس الغامر بمقدم الربيع ؛ وفى الربيع تسترد النفوس والقلوب والأجساد شبابها ، وتجدد إهابها ، وتستعيد كتابها ، وتستبدل بقشورها لبابها ، فكأنما هى رجعة إلى الواحة الفيحاء بعد طول اللغوب ، والاصطلاء بحر الصحراء ؛ وفى الربيع تخرج الأرض كنوزها ، وتمنح إبريزها ، فيزكو النبات ، وتخضر الحقول ، وتزهو البقول ، وتزدان الأغصان والأفنان بالنتاج والثمار ؛ ثم يُختم الربيع بعيد الحصاد ، فتمتلىء اليد الفارغة ، وتشبع البطون الجائعة ، وتسد الفتوق ، وتؤدى الحقوق ، ويغنم المحروم ، ويسعد المأزوم ، ويأخذ كلٌّ من يومه لغده ... وهكذا تسير قافلة الحياة الهائلة دائما إلى الأمام !!..

وما كان للقرآن الكريم — وهو سفر الكون ، وكتاب الحياة ، وترجمان الطبيعة ، وصوت خالقها — أن يُغفل أمر الربيع وشأنه هذا الشأن ، وأثره هذا الأثر ؛ ولذلك نراه — وإن لم يصرح باسم الربيع — قد عرض مظاهره فى أجمل الصور ، وأشار إلى معانيه ، واستخلص منها أدق العبر ، وفتح للناس آفاقا رحيبة وعديدة من بوادر الربيع وبشائره ، ونتائجه ومآثره ، وجعلها لهم فى هذه الآفاق نورا وضياء ، وجمالا وبهاء ، ومتعة وغذاء ، وعظة ودواء ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ! . .

ها هو ذا القرآن الكريم يقف البصائر والأبصار على سر الحياة ومنشأ النبات وأس الربيع ، فيحدثنا كيف ينشأ الزرع والنبات والشجر ، وكيف استطاعت قدرة

الخالق الوهاب أن توجد الحى المتحرك من الجامد الهامد ، وأن تحيى الأرض بعد موتها فيقول : « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فأنى تؤفكون » . ويقول : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » . ويبين لنا القرآن فى صورة أخاذة وأسلوب حى بليغ معجز ، كيف يهيىء الله الأسباب الكونية لهذه الحياة النباتية الرائعة ، بما فيها من ألوان وأصناف ، وأشكال وأنواع ، فيقول عز شأنه : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . ويقول : « وهو الذى أرسل الرياح فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور » ! . ويقول : « وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً . نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . ويقول : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

فهو فى هذه الآيات الكريمة قد أرانا كيف مهد وهو الحكيم العليم الأسباب الظاهرة لموكب الربيع الحافل ، وكيف جعل من هذه الرياح سببا لنزول الماء ، وكيف أنبت هذا الماء من كل الثمرات ، وزان رياض الأرض بما نرى من آيات الجمال والجلال ! .

* * *

ونبات الربيع الباكر الذى يزدهى ويرتقى ، ويتوالد ويتكاثر ، ويتضاعف ويتزايد ، خيرُ مثل يضرب للماء والبركة ؛ ولذلك نرى القرآن الكريم حينما أراد أن يصور مضاعفة الجزاء والإحسان والثواب للمنفق والمعطى اختار المثل له من « الحبة » التى تنبت فتأتى بأضعافها وأضعاف أضعافها ، استمع إليه إذ يقول : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » أو يختار « الجنة » المشتملة على الحبوب الكثيرة فيقول : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم ،

كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » .

ومن عناية القرآن الكريم بالربيع ومظاهره من الأشجار والثمار ، أننا نراه يؤثر أن يمثل الكلمة الطيبة ، والعقيدة الصادقة ، والقولة النافعة ، بما يجملها ويحببها إلى النفوس ويقربها إلى الأفئدة ، فيختار لها « الشجرة » الطيبة المثمرة ، ويؤثر أن يمثل الكلمة الخبيثة والعقيدة الفاسدة بما ينفر منها الأذواق والطباع ، فيختار لها ما ليس من الربيع الحق فى شىء ، وهو الشجرة الخبيثة التى لا تزكو ولا تنمو ، ولا تجود أو تثمر ، اسمعه فى ذلك يقول : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء » ! .

* * *

وعندما أراد القرآن الكريم أن يذكر للناس نعم ربهم عليهم ، وآلاءه التى يسرها لهم ، وبركاته التى نفحهم بها ، ذكر ما يمتاز به الربيع من جنات وثمرات فى مقدمة هذه الآلاء واللطائف ، وجعل ما يأتى به الربيع من خيرات وطيبات ذا شأن كبير ومنزلة رفيعة ، يجب أن يحتفل به ،وأن يلتفت إليه ويحرص عليه ، ويشكر بما هو أهل له ؛ انظر إليه إذ يقول : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . ويقول : « وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . ويقول : « أمّن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » . « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون ؛ فأنشأنا

لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ، وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » .

* * *

وحينما أراد القرآن الكريم أن يصف للمتقين جنة ربهم ، وما فيها من نعيم مقيم ، ولذات لم ترها عين ، ولم تسمع بها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، اختص مظاهر الربيع بنصيب كبير فى هذه الجنات ، وآثر مفاتن الربيع دون غيرها ، وحلى بها نعيم الجنان ؛ فنرى القرآن الكريم فى كثير من الآيات يعد العباد على تقواهم وعملهم الصالح جنات ألفافا ، واسم « الجنة » وحده كاف فى التذكير بالربيع ، لأنها منه وإليه ، فهى رَوح وريحان ، وهى ماء وظل ، وأشجار وأطيار ، مع الفوارق الكثيرة طبعا بين جنة الناس وجنة خالق الناس ؛ وما أكثر ما تحدث القرآن الكريم عن الأنهار الجارية فى الجنة ، وعن الفواكه الدانية التى ليست بمرفوعة ولا مقطوعة ولا ممنوعة ، وعن الأشجار الظليلة الوارفة ، وعن الأطيار الجذابة ، وعن الرياحين الناضرة ، والأزهار العاطرة ؛ فهو يقول مثلا فى وصف الجنة : « ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا » . ويقول : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . . . »

إلى غير ذلك من الآيات المبثوثة فى ثنايا القرآن انبثاث الثمار اليانعة خلال روضة غناء ، كل ما فيها شهىٌّ غذاء ! ! .

* * *

ولكن القرآن الكريم الذى جاء حاملا علم التوحيد الخالص ، وإفراد الله بالعبادة والإخبات ، والذى يهدى إلى العقبى كما يهدى إلى الدنيا ، والذى يختط لقومه خطة الاعتدال والاقتصاد ، قد خشى على العباد أن تطغيهم العاجلة ، أو تبطرهم النعمة ، أو تفتنهم الشهوة ، أو تخدعهم المظاهر ، فتلفتهم عن الحق الأول ، والعلى الأعلى ، والحى الباقى ، فأراد أن ينهنه من غلوائهم فى حب الدنيا ، وأن يحذرهم من بغيهم فى التعلق بها ، مهما كانت جميلة ومغرية ، لأن من ورائها ما هو أبقى وأنقى ، وأصفى وأسمى : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » ؛ فهو يؤكد للناس أن ما تعودوه من حب للشهوات وهيام بالملذات وإسراف فى التعلق بمفاتن الكون ليس حكمة أو سدادا ،

والواجب عليهم أن يأخذوا من كل شيء بنصيب ، وأن يتمتعوا بما خلق لهم بقدر ، فقد أحل الله لهم الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ولكنه مع هذا حذرهم من الإسراف حتى فى المباح : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . ولذلك نراه يقول : « زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » . فكلمة « الحرث » التى وردت فى الآية الكريمة تشمل أنواع النبات والزروع ، وقد جعلها الله مما زين للناس حبه ، وحذر من الإسراف فى حبه مهما كان فاتنا وجميلا ، لأن هناك من جنس هذه الجنات وهذه المفاتن الطبيعية ما هو أبهى وأزهى ، وأبقى وأخلد : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » ، « وإن الآخرة هى دار القرار » .

وها هو ذا القرآن الكريم يصور لنا الدنيا وعاقبتها ، من الفناء والزوال ، وإن طالت وامتدت ، وظن بها الخلود والبقاء ، بصورة جنة عالية ، قطوفها دانية ، يراها المرء فيحسبها نعيما مقيما ، وخُلدا خالدا ، ولكن أمر الله يأتيها عندما يريد ، فيجعلها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا نباتا ولا زهرا ، ولا شجرا ولا نهرا ، ويجعلها هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا ؛ وما يريد القرآن بهذا التشبيه والتمثيل إلا أن يباعد بين أهله وبين الاغترار بالزائل ، أو الافتتان بالحائل ، بل أمرهم متعة عاجلة ، ومنفعة فاضلة ، وتذكرة ماثلة ، وإلى الله المرجع والمآب : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ، « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » ! . . .

ولذلك نرى القوم الذين سلفوا من الصدر الأول رضوان الله عليهم يتمتعون بالربيع وجماله ، والطبيعة وزينتها ، والحياة ولذتها ، حتى إذا دعاهم داعى الجد والكفاح ، أو هتف بهم هاتف الجهاد والنضال ، أو ندبهم صوت الآخرة والشهادة ، نسوا كل متاع ، وأعرضوا عن كل لذة ، وحرّموا على أنفسهم بأنفسهم كل شهوة ، حتى يقفوا الموقف الفاصل ، فإما حياة بعزة وكرامة ومتعة بعدهما ، وإما موت أعذب من الماء البارد على ظماء الأكباد :

روى أن أبا خيثمة الصحابى الجليل تخلف عن المسير مع رسول الله عليه الصلاة والسلام فى غزوة تبوك التى كانت فى زمن عسرة من الناس ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، وأورقت الأشجار ، وامتدت الظلال ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص إلى الجهاد ، ويتخوفون من بعد الشقة وطول الرحلة ووطأة القتال ؛ ورجع أبوخيثمة بعد أن سار رسول الله صلوات الله عليه أياماً — إلى بيته فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما داخل حديقته ، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها . وبردت له فيه ماء . وهيأت له فيه طعاما ؛ فلما دخل ونظر ما فعلت امرأتاه استعبر وندم ، وقال متأسفا : رسول الله فى الضح ( الشمس ) والريح والحر ؛ وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ؟.. ماذا بالنّصَف[1] !.. ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيّآ لى زادا ! . . ثم خرج حتى أدرك رسول الله فى تبوك ، فلما دنا من رسول الله عليه صلوات الله قال من معه : هذا راكب على الطريق مقبل يا رسول الله ! . فقال : كن أبا خيثمة ! . فقالوا : يا رسول الله هو والله أبو خيثمة . . فلما سلم على الرسول قال له : أولى لك يا أبا خيثمة ! . . فقص عليه قصته ، فقال له الرسول خيرا ودعا له بخير ! .

وهاهو ذا القرآن الكريم يقص علينا قصة رجل مغرور مخدوع بما حازه من حدائق وجنات ، ولم يشأ أن يكون إنسانا يعرف للنعمة حقها ويؤدى شكرها ، ويحمد عليها المنعم بها ، بل فجر وكفر ، وعاند وجحد ، فكان جزاؤه أليما ، وعقابه وخيما ، سلبت

---

(١) النصف : هو الإنصاف والعدل .

منه نعمته ، وحقت عليه نقمته ؟ اقرأ هذه الآيات : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلباً ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ! .

وها هو ذا ربنا أيضا كيف يأتى النكال والوبال من جراء الأنانية الفردية ، والاستئثار بمباهج الحياة وثمرات الحدائق ونتاج الزروع وحصاد النبات ، وعدم مشاركة الناس ولو بميزان فى هذه المتع واللطائف والنفحات التى جادت بها الطبيعة ، وأبدعتها يد المنعم الوهاب ، فالله قد كتب الخسار والبوار على إخوة أرادوا أن يبخلوا على الناس بما فضلهم الله به ، ومنحهم إياه من حدائق ذات بهجة ، وحقول ذات بركة ؟ ونسج القرآن خيوط هذه العظة ببلاغة وإيجاز ، فقال : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، إنا إلى ربنا راغبون ؟ كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ! ! . . .

* * *

هذا ولو أردت أن أقف أمام كل آية ، لأحلل وأفصل ، أو أدقق وأتعمق ، لطال حبل الكلام وإن لم يُمل ، فليكن ما ذكرت غيضاً من فيض ، وزهرة من روضة ، وطاقة من خميلة ، وقطرة من محيط ، وشعاعا من شمس ساطعة ؛ وكتاب الله من قبل ومن بعد مفتوح مبسوط لكل قارىء يريد أن يمتع نفسه وحسه ، وقلبه وعقله ، بحديثه العلوى الإلهى الفريد عن جمال الكون وحسن الطبيعة وأثر الربيع ! ! . .

أما بعد ، فإذا كان لكل موضوع خلاصة ، ولكل باب لباب ، ولكل بحث فذلكة ، فلنقل ملخصين موجزين — وموضوعنا فسيح رحيب — : إن القرآن الكريم قد عُنى عناية كبيرة بالربيع وآثاره ، وجمال الطبيعة ومجالها ، ومظاهر الكون الزاهية ومباديها ، فتحدث عنها فى سور كثيرة ، وترجم عنها فى عشرات وعشرات من الآيات الكريمة ، وفصل ما فيها من جمال ومتعة ، ولذة ونعمة ؛ ولكنه بعد أن أفاض فى ذلك حتى بلغ الغاية وأوفى على النهاية ، وأباح منه للناس ما تطيب به نفوسهم ، وتسمو أرواحهم ، وتطهر قلوبهم ، وينبل شعورهم ، عاد فدعا إلى الانتفاع بذلك كله فى حدود المحجة اللاحبة البيضاء . بلا سرف أو تبذير ، وحث على التمتع به فى قصد واعتدال ، وحذر من التعلق به إلى درجة الفناء أو العبادة من دون الله ، وتستطيع أن تتناول المصحف الشريف تتلوه مستعينا ببعض التفاسير السهلة ؛ لتأخذ لنفسك صورة كاملة عن حديث القرآن الكريم عن الربيع ، وما يتصل به ، لتعرف أن الخالق العظيم قد جعل هذه الناحية الجميلة فى الحياة مصدر استفادة وهداية ، أكثر مما جعلها مصدرَ طغيان وغواية ؛ وعزّ الذى أنزل الكتاب فما فرط فيه من شىء ، « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟ ! .

* * *

ثم أما بعد ، فيا أيها الربيع ! . . . لقد أطال فيك الشعراء والأدباء أشعارهم وأغانيهم ، فلم يدَعوا منك وجها إلا استقبلوه ، ولا صفحة إلا جَلوها ، ولا معنى إلا صوروه وعرضوه ؛ فماذا بقى من خفاياك وطواياك أيها الربيع ؟ . . وأى سر من أسرارك بقى مكنونا ، بعد أن قيل فيك ما قيل ، لنحاول كشفه أو وصفه ؟ ! . . .

إنك على الرغم من كل ما كُتب عنك ، أو قيل حولك ، لا تزال سرا محجبا ، ولا

تزال منهلاً ثرًّا ، ولا تزال منبعا فياضا ، لا يغيض لك ماء ، ولا يذبل منك رواء ، وستظل هكذا حتى تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات ! . .

إنك تمثل الوفاء أيها الربيع ، ففي كل عام تطالعنا بشائرك وبوادرك ، وأزاهيرك وبواكيرك ، وما تخلفت عاما عن ميقاتك ، وما نقضت مرة ميثاقك ، فهلا تعلمَّ منك الناس هذا الوفاء ، تخففوا من غدرهم ، وطامنوا من نكثهم لعهودهم ، واقتدوا بك في صون العهد وصدق الوعد وحفظ الوفاء ؟ ! . .

وإنك لتأتي أيها الربيع الجميل فتحيي الأرض بعد موتها ، بفضل ربك الذي خلقك وخلقها ، وتحيل التراب جنة ، والهامد ناضراً ، والخراب عامراً ، فهلا تأسى بك الناس في هذا التجديد والإحياء ، فأحيوا قلوبهم بعد موتها ، وبعثوا نفوسهم من رقادها ، وجددوا عزائمهم بعد تداعيها ، وسموا بأنفسهم بعد هبوطها ؟ ! .

وأنت تقبل أيها الربيع فتمس بيدك السحرية هذه الأكمام المغلقة ، وتنشر المطارف والأفواف المطوية ، وتنسق وشيك المنمنم ، وتبدع في عرض مفاتنك ومحاسنك ، وتنفح الكون بأريجك وعبيرك ، وعطورك وشذاك ، فهلا تبعث الناس في هذا ، فنشروا ألفاف قلوبهم ، وطهروها من أدرانها وأحقادها ، وجعلوها تفوح بعبير الحب للحق والخير والجمال ؟ . وهلا قلدوك فنشروا ما أودع في نفوسهم من سمو وجمال ، وطووا في غور سحيق لا يُنال مداه ما أثقلتهم به حياة الطين من خبث وسوء ؟ .

وأنت تهبط على الناس أيها الربيع هبوط الغيث الهاطل ، والمطر المسكوب الذي لا ينقطع ولا يمتنع ، فأنت جواد مسماح ، تعطي ولا تأخذ ، وتمنح فتزيد في العطاء ، وتبذل ما في يدك لكل الناس ، لا فرق بين غني وفقير ، ولا بين صغير وكبير ، ولا بين عدو وصديق . وهل يستطيع النسيم أن يكف عن مصافحة الوجوه ، أو الزهرة أن تمتنع عن النضرة ، أو الروضة أن تكتم أنفاسها فلا تذيع ، أو الربيع بمواكبه كلها أن يمنع الناس ، أو كائنا من كان ، شيئاً من متعه وملذاته ، أو نتاجه وخيراته ؟!... فهلا اهتدى بهديك أبناء التراب ، وأنضاء الشهوات ، وعبيد الأهواء ، وجنود الرغبات الخسيسة ، في هذا الجود الفريد ، فسمحوا بعد كزازة ، وجادوا بعد شح ، ومنحوا بعد منع ، ولانوا بعد غلظة وفظاظة ، وجعلوك في هذا الخُلق علما وإماما ، وقدوة وأسوة ؟ ! .

وأنت أيها الربيع تأتي فيصلا بين نقيضين متباينين ، بين حر لافح ، وريح عاصف ، بين صيف شديد وشتاء جليد ، تأتي كالعافية بين شدتين ، عدلا وسطا قاصداً ،

لايزيد لينك حتى تُعصر ، ولا يشتد عودك حتى يكسر ، بل بين بين ، هواؤك لم يعنف حتى يكون سموما ، ولم يبرد حتى يكون زمهريراً ، وشمسك لاتغيب ولاتبعد حتى تتمنى ، ولاتدنو وتداوم حتى تمل وتكرَه ؛ وكل مافيك وسط جميل ، يلقاه الناس فيقولون : ليت هذا يدوم ، وليت العمر كله كان ربيعاً ! .. فلم إذن أيها الربيع ينسون أنفسهم ، فلا يكبحون جماحها ، ولايردون طغيانها ، فيقيموها على المحجة البيضاء ، ويلزموها الطريق القاصدة المعتدلة ، حتى يسعدوا بحياتهم ، وينعموا بمسرات دنياهم فى قسط واعتدال ؟ ! .

* * *

إن كتابك أيها الربيع منشور منظور ، فيه رموز وإشارات ، وصُوى وعلامات ، وما أحوجك أيها الربيع إلى العيون البصيرة الفاحصة ، التى ترى فى النبتة أو الزهرة صورة مصغرة للكون العريض الوسيع ، والتى تشهد فى كل صورة من صورك مبلغ ما أودع فيك ربك من فن وجمال ، وروعة وبهاء ؛ ولكن هذه العيون أيها الربيع قد شغلها بريق الذهب ، ولهب المطامع ، وجذبتها جواذب لاتقوم أمامك ، ولاترفع رأسها عندك ، ويوم يعرف الناس أثرك وخطرك ، يدركون أنك أجمل مافى الكون ، وأنضر ما فى الحياة !!.

# مذهب الشيخ محمد عبده فى الاصلاح

## نجدة إلهية

لقد كان الإمام الشيخ محمد عبده نجدة إلهية ، ومنحة سماوية ، جاءت فى الوقت المناسب لتجديد رسالة الأزهر ، وبعثه من رقاده الطويل الأمد ، الذى كاد يقضى عليه قضاء مبرما ، فيضيع بذلك تراث إسلامى وعربى وشرقى كبير ، وكأنما يريد الحق تبارك وتعالى أن يقيم أصدق الشواهد والبراهين على صدق الأثر النبوى الكريم القائل : إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها . . . ومجىء الشيخ محمد عبده فى وقته وعصره وبيئته أحد هذه الشواهد ، وإنه لمن أعجب العجب أن يكون فضل الشيخ محمد عبده على الأزهر والأزهريين عظيما عميما ؛ ثم يُنسى النسيان كله أو جله بين الأزهريين ، فلا يتابعونه فى خطواته ، ولا يعكفون على دراسة حياته ، ولا يواصلون بحث آثاره ومؤلفاته ، بينما يوجد من غير الأزهريين من يهتم بأمر الشيخ وذكراه كل الاهتمام ، فهناك الدكتور عثمان أمين مثلا ، وهو أستاذ بجامعة فؤاد ، يعنى بالإمام ومؤلفاته كل العناية ، وينال درجة « الدكتوراه » برسالة علمية كبيرة عنه ، وهناك الأستاذ محمد صبيح وهو غير أزهرى يؤلف كتابه عن « محمد عبده » أيضا ، وغير هذين كثير ، وفوق هذا يوجد فى الأزهر أساتذة أجلاء ، كانوا أعضاء بعثة علمية باسم الشيخ محمد عبده ، ومع ذلك لا نرى لهم جهوداً موصولة لتخليد ذكرى الإمام ، فأين المؤلفات عن الشيخ ؟ وأين الطبعات الجديدة الممتازة لكتبه ؟ وأين مكتبة الشيخ وآثارها ؟ وأين العناية بمنزله وأقاربه ؟ وأين تذكير شباب الأزهر بنواحى نبوغه ؟ وأين دراسة تاريخه بالأزهر ليعرف أبناء الجيل الحاضر مقدار ما ضحى به الشيخ من أجل الإصلاح؟ وأين وأين ؟ . . .

## فتح باب الاجتهاد

لقد قام مذهب الشيخ محمد عبده فى الإصلاح على عدة أصول وقواعد ؛ منها « فتح باب الاجتهاد وعدم الاكتفاء بالتقليد » . ولا شك أن هذه قاعدة هامة يطالب الإسلام بها كلَّ مسلم يريد أن يكون إسلامه صحيحاً دقيقاً كاملا ، لأن الله سبحانه

لا يريد من الخلق أن يذعنوا للاسلام عن جهل ومتابعة وتقليد أعمى ، بل يطلب إليهم أن ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وأن يسلكوا فجاج الكون ، ويستنبطوا الأدلة ، وينظروا فى البراهين ، وأن يحكّموا عقولهم وقلوبهم فيما يعرض عليهم من عقائد ومبادىء ؛ وحينئذ سيدركون صحتها وجمالها ، فيؤمنون بها عن ثقة ويقين .

ولقد نادى الشيخ محمد عبده بالاجتهاد فى وقت مظلم جامد ، يُعد الجهر بمثل هذا الرأى فيه خروجاً على الملة ومروقا من الدين ، ولكن هذا المذهب اليوم قد صار مألوفا معروفا ، ينادى به الشباب والكبار ، والمحافظون والمتحررون من أبناء الأزهر ورجال الدين ، وكان للشيخ فضل السبق بالدعوة إليه فى فترة من أدق الفترات .

## طاعة وعدالة

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح أن الصلة تقوم بين الراعى والرعية على هذا الأساس الجوهرى : «الطاعة من الشعب والعدالة من الدولة» لأن طاعة الشعب واجبة ، وعدالة الدولة لازمة ، ولا أمة ولا مجتمع بدون هذين الأمرين ، ويستمد الشيخ هذا المذهب من الدين ، ولا يبتدعه من ذات نفسه ابتداعا ، فطاعة الشعب يستمدها من قول الرسول : « أطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى » وعدالة الدولة يستمدها من قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » . وقوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وقوله : « إن الله يأمر بالعدل » وقول الرسول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . والدولة إذا جارت وظلمت ، كانت متجهة إلى ما يغضب الله ، ومنصرفة إلى نواهيه التى يعصَى بارتكابها ، فلا تستحق حينئذ الطاعة .

## اللغة العربية

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح « تجديد شباب اللغة العربية والعناية بأمرها » لأن اللغة العربية بالذات جزء من العقيدة ، إذ بها نزل القرآن ، وبها تحدث الرسول ، وعن طريقها تؤخذ الأحكام ، وبأسلوبها تتلو الكتاب المجيد المتعبَّد بتلاوته ، وتراثها ملىء بخوافز الأخلاق والآداب وبواعث الهمم . . . وقد جاء الشيخ محمد عبده

فى وقت كانت اللغة العربية فيه ميتة ، أو بمعنى أدق كانت تأخذ طريقها إلى قبرها . حتى صدق عليها قول حافظ :

فياويلتـا أبلى ، وتبلى محاسنى ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان ، فإننى أخاف عليكم أن تحين وفاتى

فما كان من الشيخ إلا أن بعث فى هـذه اللغة بأسلوبه ودروسه وكتاباته روحا جديدة وريا رائعا . وكان عمله فى الجريدة الرسمية ، واشتراكه فى الكتابة بالصحف والمجلات ، وحلقات دروسه ، وكتبه التى ألفها فى التفسير والتوحيد والذب عن الإسلام . . . كانت كل هذه الأسباب وسائل فعالة لتمكين الشيخ من خدمة اللغة العربية خدمة جليلة ، فرأيناها تخرج على يديه من مجال السجع السقيم والبديع المتكلف والحلية اللفظية المصطنعة ، والعناية الشديدة بظاهر العبارة دون معناها ، إلى رحاب الاهتمام بالفكرة والموضوع ، وعرض الآراء والنظريات ، وقد تشبه بالشيخ بضعة نفر من الكتاب والخطباء ، كانوا الطليعة الأولى لبعث اللغة العربية من رقادها إلى مجال حياتها وشبابها الذى نشاهد مداه اليوم .

## التربية والتعليم

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح « العناية أولا بالتربية ونشر التعليم ، وتقديم ذلك على تغيير الأوضاع ، أو الاعتساف فى الإصلاح » . وقد كانت هذه الفكرة سبب خلاف دائم بينه وبين أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ، فجمال الدين المتمرد الثائر الذى لا يهدأ ولا يستقر ، يريد أن يتعجل الظفر بالثورة أو التمرد أو العنف ، ولكن الشيخ محمد عبده لا يرى هـذا ولا يأخذ به ، فهو ينادى أولا بتربية الشعب وتعليمه ، فإذا تم ذلك للشعب المحروم المهضوم الحقوق ، فإنه سيسعى بنفسه لنيل حقوقه ودفع الضر عنه .

وهذا الاختلاف بين الرجلين طبيعى ، توحيه ظروف كل واحد منهما ، فجمال الدين رحالة جوالة غريب ، لا أهل له ولا زوجة ولا ولد ولا ضياع ، وقد ناله من الاضطهاد ما ناله ، وذاق من التشريد والتنكيل ما ذاق ، فهو لا يأسى على شىء ، ولا يُبقى على شىء ، وإذن فليكن العنف ديدنه ، والقسوة فى حمل الناس على الإصلاح شعاره ،

أما الشيخ فمستقر فى وطنه ، وله أهل وأسرة ومنصب ، وعوامل الهدوء والاطمئنان تحيط به ، وصدق الرسول : « الولد مجبنة مبخلة » . فلا عجب إذن أن نرى بين الرجلين ذلك الاختلاف ، ويخيل إلى أن أسلوب الشيخ محمد عبده أجدى وأضمن ، وإن كان أهدأ وأطول ، فإن العنف قد يؤدى إلى نقيض المطلوب منه ، وعبر التاريخ القاصية والدانية معلومة غير مجهولة .

## التكتل لمواجهة الأعداء

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح « الاتحاد العام أمام العدو الخارجى ، ونسيان الحزازات والخلافات الداخلية أثناء الخطر » . وقد حدثت خلافات بين الشيخ وبين بعض مواطنيه ، وتفرقوا فى الرأى والفكرة ، ولكنه نسى هذه الأحقاد الداخلية حينما دق ناقوس الخطر ، ووضع يده فى أيدى مخالفيه ، وكان دائما يدعو فى أحاديثه ودروسه ومقالاته إلى هذا الأسلوب من التعاون والاتحاد . .

## محاربة الخرافات

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح « محاربة الخرافات والأباطيل التى نسبت ظلما وزوراً إلى الدين ، وأخذ الأفاكون والمفترون يخترعون لها من الأسانيد ووسائل التعضيد مالا يرضاه شرع ولا خلق كريم » . ولقد تطلع الشيخ فوجد هذه الخرافات تشيع أكثر ماتشيع بين دهماء الشعب وأدعياء التصوف ، الذين توانوا عن العمل الصالح والسعى الشريف ، فاحتالوا على رعاع الناس بأحابيل شيطانية وأباطيل كهنوتية ، وبذلك استطاعوا أن يسودوا ويكسبوا ، ويتحللوا من أسباب الدين وروابط الأخلاق ، فما كان من الشيخ عليه رضوان الله إلا أن وقف فى وجوههم ، يهاجم ترهاتهم ، ويحطم أصنام بهتانهم ، ويحمل عليهم حملة شعواء ، كان لها كبير الأثر فى تطهير المجتمع من كثير من السيئات ، ودحضت عن حمى الإسلام عديداً من الخرافات والشبهات .

وما ابتعد بالناس عن رحاب الدين الصحيح الخالص ، ولا ألقى بهم فى مهاوى الضلال والاضمحلال ، إلا هذه الخرافات التى تشيع فى الأمة حين ضعفها وانحلالها ، فتنزل بها من عليائها إلى قرار سحيق ، وما أجدر الذين يترنمون باسم الشيخ محمد عبده

أو يأكلون بالانتساب إليه أطيب الزاد ، بأن يتابعوا السير على طريقته ، وأن يتمموا مابدأ ، فيُصلوا الخرافات الشائعة ناراً حامية من صولة الحق ، حتى يزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

## ورثة الأنبياء

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح « تحريك رجال الدين من رقادهم ، لأنهم مصابيح الظلام وهداة الأنام وورثة الأنبياء ، والمحجة الواضحة حين تتفرق الأهواء » . ولقد جاء الشيخ محمد عبده ورجال الدين هم مع الأسف المؤلم المعض أبعد الناس عن أداء رسالة الدين العظيم ، فهم قد شغلتهم دراسات عقيمة وخلافات سقيمة ، وشهوات عاجلة ومطامع رخيصة ، فما كان منه إلا أن قرع أسماعهم بصيحة الحق وكلمة الصدق ، وأراهم قولا وعملا أن رجل الدين هو الأساس ، وهو العماد ، يجب أن يكون المرجع لحل المشكلات وفض الأزمات ، ويجب أن يكون صوته أعلى الأصوات ، لأنه مستمَد من هدى الخالق للأرض والسموات ! .

## إصلاح الأزهر

ومن مذهبه فى الإصلاح « الاعتماد فى نهضة المسلمين على النهوض بالأزهر ، لأنه حصن الدين ومعقل اللغة » . ولاعجب أن يذهب الشيخ هذا المذهب ، فقد أراد الذين بنوا الأزهر أول مابنوه أن يكون مدرسة خاصة لمذهب خاص لأناس مخصوصين ، ولكن العناية الإلهية أبت إلا أن تجعل من الأزهر الشريف المعمور كعبة دينية ، يتمثل فيها جلال الإسلام ، ويدوى فى رحباتها صوت الهداة الثقاة ، من أعلام علمائه الأفاضل رضوان الله عليهم ، ولقد استطاع الأزهر بتاريخه الطويل ، وشيوخه الأجلاء الكثر ، وشبابه المتوثبين من حول الحنيفية الغراء على الدوام ، أن يكون الحصن الحصين للاسلام ، والمعقل المنيع للفكرة الإسلامية ، يخبو ضوؤها فى كل صقع بعمل الدسائس والمكائد ، ولكن ضوءها فى الأزهر يظل على الدوام ساطعاً مشعا ، وإن خُيل للجهلاء أنه قد خبا أوزال . ولن يستطيع ناهض بالفكرة الإسلامية فى مصر

أو فى العالم الإسلامى أن يصل إلى مايريد ، دون أن يتخذ من إصلاح الأزهر الشريف ، والنهوض بأهليه ، أساساً لوثبته ، وركنا ركينا لدعوته ؛ والشواهد القريبة والبعيدة تتواثب من كل ناحية ، لتقوم براهين واضحة على مانقول .

## يسر الإسلام

ومن مذهب الشيخ فى الإصلاح « أن المسلمين لن ينتفعوا برسالة الإسلام العظمى حق الانتفاع إلا إذا عرفوا ما فيها من يسر وسهولة وجمال ، قبل أن يعرفوا ما فيها من شدة وتكليف وتعنيف » . . . وقد جعل الشيخ رحمه الله من نفسه ضحية لنصرة تلك الفكرة ، فقد نشأ فى وسط محافظ جامد عتيق ، يرى أن الدين هو المظهر والثوب والمشية فحسب ؛ فثار الشيخ على ذلك ثورة عملية ، فبين العمائم الكبيرة العجراء ، والثياب الفضفاضة الواسعة ، والمشية الثقيلة الميتة ، والتظاهر الكاذب المنافق بالورع والتقوى والإيمان ؛ ظهر الشيخ رجلا متحضرا متمدنا ، يعرف سهولة الإسلام ورحابته ، وما أباحه الله فيه لعباده من الطيبات . فهو يربى شعره ويرجله ، وهو يلبس كاكولة ضيقة منمقة ، وهو يتعلم اللغة الفرنسية ، ويجلس فى محافل الناس ومجامعهم ، ويخالط الأجانب ، يسمع منهم ويرد عليهم ، وهو يكتب فى الصحف ، ويخطب فى الجماهير ، ويتكلم فى السياسة والشئون الوطنية ؛ وهو يأكل فى الطريق ، مع أنه مفتى الديار المصرية ، ويالها من كبيرة فى نظر القدماء أن يأكل مسلم فى الطريق ، فضلا عن أن يأكل المفتى الأكبر للوطن !..

وكان إذا عورض فى شىء من ذلك رد على معارضيه فى جراءة وإيجاز ، مفحما ومقنعا ... سار ذات يوم مع تلميذه السيد رشيد رضا قاصدين محطة العاصمة بالقاهرة ، وفى أثناء الطريق اشترى الشيخ من أحد المحلات جانباً من ( البسكويت ) ، وجعل يأكل منه بلطف فى الطريق ، فقال له السيد رشيد مداعبا أو مستفهما أو مستنكراً : أمفتى الديار المصرية يأكل فى الطريق ؟ . . فأجابه : أما قرأت أنه قيل لديوجين الفيلسوف : لماذا تأكل فى الطريق ؟ . فأجاب : لأننى أجوع فى الطريق . ونحن قد فاتنا عشاء الدار الآن فنكتفى بهذا ! ! .

وقد نقم كثيرون على الشيخ بعضَ الفتاوى الجريئة التى أصدرها فى شئون اقتصادية أو اجتماعية ، وهم فى هذه النقمة مخطئون أو مسرفون ، لأن الشيخ لم يأت بهذه

الفتاوى من عنده ، بل كان يستنبطها من نصوص إسلامية لها قيمتها ، وكان الأولى بهؤلاء الناقمين أن يقرعوا الحجة بالحجة ، حتى تظهر الحقيقة فى أدب وهدوء ، بدل هذا التطاول وذلك السباب ! . . .

ومع هذا فالشيخ محمد عبده الجرىء المتحرر المتنقل هنا وهناك ، الحاطم للشبهات والمفتريات ، المحرض على النزول إلى معترك الحياة ، والآخذ منها بالنصيب المباح ، كان رجلا له جلواته الروحية ونزعاته الصوفية ، وشطحاته الوجدانية ؛ فلم يكن جندى العقل والفكر والمنطق فحسب ، بل كان أيضا فتى الروح والقلب والعاطفة ؛ ولم لا يكون كذلك وهو ربيب صوفى قدير ، غرس فى نفسه حب الخير وصفاء القلب وطهارة الروح ؟.. فإنه بعد أن هرب من طلب العلم أكثر من مرة ، وعافت نفسه الدراسات الدينية ، بعث الله إليه برجل صوفى اسمه الشيخ درويش ، فأصلح من نفسه ما اعوج ، ووصل من جهاده فى سبيل الله والإسلام ما كان انقطع ، ولم يكن هذا الإصلاح إلا عن طريق التصوف ، وطريق التهذيب الروحى ، وها هو ذا الشيخ محمد عبده يتحدث عن ذلك فيقول :

« جاءنى هذا الشيخ وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى أحد أئمة الصوفية إلى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره ، فدفعت طلبه بشدة ، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدىَّ رميته إلى بعيد . . لكن الشيخ تبسم ، وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب ، وقرأت منه بضعة أسطر ، فاندفع يفسر لى معانى ماقرأت ، بعبارة واضحة تغالب إعراضى فتغلبه ، وتسبق إلى نفسى ، وبعد قليل جاءنى الشبان يدعوننى إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية ، فرميتُ الكتاب وانصرفت إليهم ، وبعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه ، وألح على فى قراءة شىء منه فقرأت وفسر ، ثم تركته إلى اللعب ؛ وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى : إنه فى حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها ، فطلبت منه إبقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله ، إلى أن جاء

وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب وهوى ينازعنى إلى البطالة ؛ وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم . . ولم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شىء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو وخفخة وزهو ، وعاد أحب شىء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم » ! .

* * *

أما بعد فقد يكون للشيخ محمد عبده عيوب وأخطاء وهنات ، وقد تستطيع أن تؤاخذه على تصرفات له أو آراء ، وقد نقف طويلا أمام دوره فى الثورة العرابية ، أو اتصاله بالأوساط السياسية ، أو خروجه على بعض المألوف المعروف من التقاليد والعادات ، أو غير ذلك من الأمور ، ولكننا يجب أن نتذكر أن كلاً منا قد كُتب عليه حظه من النقص والعيب ، وأن الحسنات يذهبن السيئات ، وما واجبنا فى موقف كهذا إلا أن نجلى الحسنات ، ونستعرض الأفعال الطيبة لتكون حوافز إلى العمل والنهوض ، ثم حسبنا بعد هذا أن نمر كراما على ما هناك من سيئات ؛ لنحذرها ونتجنب تكرارها ! .

ولست أدرى أى دافع قوى يدفعنى إلى معاودة التحسر والأسف على وقف التيار الذى دفعه الشيخ محمد عبده لتحريك المسلمين وبعثهم ، فإننا لم نجد من يحمل بعده اللواء ، ولا من يتابع سيرته فى التجديد والإصلاح ، وقد ترتفع عقائر مهللة ومكبرة كلما مرت ذكرى الشيخ أو جاءت مناسبته ، ولكنى أومن بأن متابعة سيرته وإكمال رسالته هو خير تمجيد وأفضل تخليد ، فأين ورثة الإمام ؟ ! . .

# الأخلاق فى المسيحية والاسلام

« دعوة خالصة تتسامى عن صخب الجدل الدينى ،
لتدعو أبناء الوطن الواحد إلى أسباب الاتحاد ،
فى ميدان الجهاد » .

## سبب البحث

موضوع هذا البحث هو : « الأخلاق فى المسيحية والإسلام » ، على معنى أن نحاول إيضاح ما يوجد بين الأخلاق فى الدين الإسلامى والأخلاق فى الدين المسيحى من مظاهر الاتفاق وصور الاتحاد فى الدعوة إلى كريم الخلال ، ونبيل الصفات التى يجدر بالإنسان خليفةِ الله فى الأرض أن يتصف بها ، حتى يفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

وسبب هـذا البحث أن مجلساً من المجالس ضمنا ، فتحدثنا فيه عن السعى للتوفيق بين أبناء الإسلام والمسيحية ، حتى يمكننا جميعاً أن نتخلص من العصبية الطائفية العمياء ، وأن نقترب من الحق المتحد الصحيح الذى أنزله الله مفرقاً على أيدى الأنبياء والرسل فى شتى الأزمان والأمكنة . . ويقينى أن الإسلام الصحيح والمسيحية الصحيحة لايختلفان فى قليل ولا كثير ، وكيف ، وكلاهما من السماء ومن وحى الله ، ووحى الله لا يتبدل ولا يختلف . وكيف يصدر عن الحق غير الحق ؟ وكيف يوحى الله بدين ثم يوحى بآخر ينازله ويعارضه ويحاربه ؟ . . . وكيف تختلف الأخلاق فى الإسلام الصحيح عن الأخلاق فى المسيحية الصحيحة ؟ بل كيف تختلف أديان السماء نفسها فى أصولها وأسسها ، وما جاء دين بعد دين إلا ليزيد فى هيكل الهداية الربانية ركناً من الأركان ، أو يضيف إلى قانونه الأبدى مادة من المواد ، أو يخصص عاماً ، أو يعمم خاصاً ، أو يوضح مبهما ، أو يجدد دارساً ، أو لينسخ فرعاً قد انتهى أجله ولم يعد صالحاً للعمل به .

جاءت المسيحية إذن لتزيد فى البناء ، ولتواصل الجهاد ، وها هو ذا السيد المسيح عليه السلام يقول : « لا تظنوا أنى أتيت لأحل الناموس والأنبياء . إنى لم آت لأحل

لكن لأتمم . الحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل » .

ثم جاء الإسلام أيضاً لا ليحل ولا لينقض ، بل ليتمم ويكمل ، فنبي الإسلام يقول إن الأنبياء إخوة أبوهم واحد والأمهات مختلفات ، ويشبه موقفه من الأنبياء ببيت قد شُيد فأحسن تشييده وكثر المعجبون به ، إلا أنهم كانوا يلاحظون موضع لبنة لايزال خالياً ، فيقولون : لولا وضعت هذه اللبنة ليتم البناء . . . ثم يقول النبي محمد عليه الصلاة والسلام عن نفسه إنه هذه اللبنة . ويقول الله عن القرآن إنه مصدق لما بين يديه . ويقول أيضا :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

فليس بعجيب إذن أن تتفق الأخلاق فى المسيحية والإسلام ، بل العجيب ألا تتفق . . .

ولنتناول الموضوع من ناحية أخرى فنتساءل : ما هى الأخلاق ؟ . . .

إنها صفات الإنسان وعاداته وطباعه التى إن كانت خيراً وبركة أضافته إلى قائمة الفضلاء الصالحين ، وإن كانت سوءاً وشراً أنزلته إلى درك المفسدين الظالمين . . .

وأديان الله لم تأت إلا للخير وبالخير ومن الخير ، فكيف لا يدعو واحد منها إلى صفات الخير وخلال البر ؟ . . . بل إن هذا المبدأ ليتجاوز الشرائع السماوية إلى مذاهب المصلحين ومناهج المجاهدين من الناس ، فإنهم يحرصون دائماً على أن يسندوا مبادئهم ودعواتهم بالتغنى فى الأخلاق الفاضلة والتحمس للعادات النبيلة . . .

## الأخلاق فى القرآن

والدعوة إلى الأخلاق مبثوثة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ويكفى الإنسان الباحث أن يتناول كتابا كإحياء علوم الدين للغزالى كى يدرك أن الإسلام قد أعطى الناحية الأخلاقية من اهتمامه وعنايته الجانب المهم الملحوظ ، ولذلك لن أحاول

الإفاضة أو الإحصاء ، بل سأكتفى بأن أجول معكم جولة سريعة خاطفة ، نتعرف فيها إلى بعض المواطن التى حث الإسلام فيها على كريم الأخلاق .

هذه سورة الإسراء مثلا ، وهذا هو القرآن يقول فيها : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ؛ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ، وإماتعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا ، ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خِطأ كبيرا ، ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلايسرف فى القتل إنه كان منصورا ، ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولاتقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولاتمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

فى هذه الآيات نرى الإسلام قد دعا إلى جملة من أمهات الأخلاق الفاضلة فى صورة باهرة مؤثرة .. حث فيها على طاعة الوالدين وبرهما ، وإيتاء حق القريب والمسكين وابن السبيل ، وحثّ على الاقتصاد وعدم التبذير والتوسط ، ونفّر من القتل والزنى والاعتداء على مال اليتيم ، وحث على العدل فى الكيل والميزان والوفاء بالعهد وعدم التعرض لما لايعنى ، والتواضع وعدم التجبر فى الأرض .

ثم يعود القرآن إلى تأكيد هذه الدعوة ، وتوضيحها بأسلوب جديد أخاذ ، فنراه يقول فى خاتمة سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاصالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ، والذين لايشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما » .

ثم نرى لقمان فى السورة المسماة باسمه يعظ ابنه عظة بليغة يردد فيها الحث على بعض ماسبق من الأخلاق ويزيد بعضاً آخر . . . : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكرلى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

وفى سورة فصلت نرى القرآن يحث على خلق سنعرف أن المسيحية اهتمت به اهتماماً كبيراً ، وبالغت فى الدعوة إليه مبالغة زائدة ، فيقول : « ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، ومايُلقاها إلا الذين صبروا ، ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وفى سورة الحجرات يدعو إلى الإصلاح الإنسانى العام ، ويذكر بأخوة الإنسان للانسان ، وحرمة الإنسان على الإنسان ، فيقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا

فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ؛ يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولاتنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ، ولايغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم » ...

هذا قُل من كثر مما ورد فى القرآن الكريم بشأن الأخلاق ، وقد أردت أن أسوق إليكم هذه الآيات متتابعة ، دون أن أعلق عليها ، أو أعرض لها بتحليل أو شرح ، فهى كما ترون لاتحتاج إلى شىء من هذا ، ولو احتاجت لطال حبل الحديث .

ولست فى حاجة إلى أن أذكركم بأن الحديث الشريف يفيض بمئات العظات والنصائح الأخلاقية ، ومثل ذلك يقال عن آثار الخلفاء والصحابة والعلماء والباحثين الإسلاميين .

## الأخلاق فى المسيحية

تعالوا بنا إلى المسيحية ، وتناولوا أحد الأناجيل المعروفة ، وليكن إنجيل متى ، ولنقرأ الإصحاح الخامس ، ففيه يقول :

« فلما رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل ، ولما جلس دنا إليه تلاميذه ففتح فاه يعلمهم قائلا : طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات ، طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض ، طوبى للحزانى فإنهم يُعزوْن ، طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون ، طوبى للرحماء فإنهم يرحمون ، طوبى للأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله ، طوبى لفاعلى السلامة فإنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات ، طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من أجلى كاذبين ؛ افرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم فى السموات ، لأنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم ، أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يملح ، إنه لايصلح لشىء

إلا لأن يُطرح خارجا وتدوسه الناس ، أنتم نور العالم ، لايمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل ، ولايوقد سراج ويوضع تحت المكيال ، لكن على المنارة لينير على كل من فى البيت . هكذا فليضىء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذى فى السماوات ...

« قد سمعتم أنه قيل للأولين: لاتقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة ، أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة ، ومن قال لأخيه راقا يستوجب حكم المحفل ، ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم ، فإذا قدمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً فدع قربانك هناك أمام المذبح وامض أولا فصالح أخاك ، وحينئذ ائت وقدم قربانك ، بادر إلى موافقة خصمك مادمت معه فى الطريق ، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ، ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتُلقى فى السجن . الحق أقول لك إنك لاتخرج من هناك حتى توفى آخر فلس ؛ قد سمعتم أنه قيل للأولين : لاتزن أما أنا فأقول لكم إن كل من نظر إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فإن شككتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولايلقى جسدك كله فى جهنم ، وإن شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولايذهب جسدك كله إلى جهنم . قد قيل من طلق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق ، أما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلا لعلة زنى فقد جعلها زانية ، ومن تزوج مطلقة فقد زنى . قد سمعتم أيضاً أنه قيل للأولين: لاتحنث بل أوف للرب بأقسامك ، أما أنا فأقول لكم لاتحلفوا البتة ، لابالسماء فإنها عرش الله ، ولا بالأرض فإنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم فإنها مدينة الملك الأعظم ، ولاتحلف برأسك لأنك لاتقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء ، ولكن ليكن كلامكم : نعم نعم ، ولالا ، ومازاد على ذلك فهو من الشرير . قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن ، أما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضاً . ومن سخرك ميلا فامش معه اثنين ، من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه ، قد سمعتم أنه قيل أحبب قريبك وابغض عدوك ، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم ، وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بنى أبيكم الذى فى السماوات ، لأنه يطلع شمسه

على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل عملتم ؟ أليس الوثنيون يفعلون ذلك ؟ فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوى هو كامل » .

فترى من هذا أن المسيحية أيضا قد دعت كما دعا الإسلام إلى الوداعة والرحمة والسلام وطهارة القلب ، وتحمل الأذى والصبر على سوء الغير ، والجهاد فى سبيل الله ليهتدى الناس ، ونفرت من الغضب وسب الغير ، وحرضت على أداء الحقوق قبل العبادة ومسايرة الناس بالمعروف والحسنى ، ونفرت من النظر إلى المحارم ، ودعت إلى الوفاء بالعهد ، والصدق فى القول ، وعدم الحنث فى اليمين .

## الرياء والنفاق

ويعود إنجيل متى فيعقد فصلا آخر ، يهتم فيه بالحديث عن عدم التظاهر ، ويحبِّب فى أداء العبادة خفية حتى لا يدركها الرياء أو النفاق ، ويندب إلى مغفرة ذنوب الناس جميعا اقتداء بالله الذى يغفر الذنوب ، ويحذر من كنز الذهب والفضة ، فيقول هذه الكلمات العذاب : « احترزوا ألا تصنعوا بركم قدام الناس لكى ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات ، فإذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجامع والأزقة لكى يمجدهم الناس ، الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم ، أما أنت فإذا صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك ، لتكن صدقتك فى خفية ، وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك ، وإذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فإنهم يحبون القيام فى المجامع وفى زوايا الشوارع يصلون ليظهروا للناس ، الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم ، أما أنت إذا صليت فادخل مخدعك ، وأغلق بابك ، وصل إلى أبيك فى الخفية ، وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك » ، « وإذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين فإنهم ينكِّرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين ، الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم ، أما أنت فإذا صمت فادهُن رأسك ، واغسل وجهك ، لئلا تظهر للناس صائما ، بل لأبيك الذى فى الخفية . وأبوك الذى ينظر فى الخفية هو يجازيك » .

هذا بعض ما فى المسيحية من تبغيض فى الرياء والنفاق ، وهناك فى الإسلام أشباه

له وأمثال ، فهو يشنع على من يتظاهر بالصلاح وهو فى الباطن فاسد ، فيخاطب الله رسوله قائلا : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا ، ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ؟ » . ويتحدث عن المنافقين فيقول : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا » . ويفضل نفقة السر على نفقة الجهر فيقول : « إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » . ويصف القرآن عباد الله بأنهم هم « الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » . ويصف المتقين بأنهم « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون » . وقد اتفق المسلمون على أن عبادة السر خير من عبادة الجهر ، وأنه يجب كتمان الأعمال الصالحة ، إذا خيف من الرياء عند إظهارها ، ولا يجوز إظهارها إلا ممن يُقتدى بعمله . .

## التسامح والعفو

ويقول إنجيل متى عن التسامح والعفو : « فإنكم إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى زلاتكم ، وإن لم تغفروا للناس فأبوكم أيضا لا يغفر لكم زلاتكم » . ومثل هذا فى القرآن قوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » . ويقول النبى محمد عليه السلام : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها . . وفى هذا الحديث يقول : وأن أصل من قطعنى ، وأن أعطى من حرمنى ، وأن أعفو عمن ظلمنى » . ويتحدث الله عن المتقين فيقول : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . ويدعو الله عباده فى قرآنه إلى العفو والمغفرة ثم يختم ذلك بأبرع تشويق فيقول : « وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

## كنز الذهب والفضة

ويتحدث الإنجيل عن مذمة كنز الذهب والفضة فيقول : « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض ، حيث يُفسد السوسُ والأكلة وينقبُ السارقون ويسرقون ، لكن اكنزوا لكم كنوزا فى السماء ، حيث لا يُفسد سوس ولا أكلة ، ولا ينقب السارقون ولا يسرقون » . . والقرآن يقول فى هذا الموضوع : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » ،

ويقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط ، وإليه ترجعون » .

وينذر الكانزين بأقسى وعيد وأشد عذاب فيقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

## مظاهر اتفاق أخرى

ونجد الإنجيل يقول : « لا تداينوا لئلا تدانوا ، فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » . ونبى الإسلام يقول : « كما تدين تدان » ؟ ويقول الإنجيل : « مابالك تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، ولا تفطن للخشبة التى فى عينك ؟. أم كيف تقول لأخيك : دعنى أخرج القذى من عينك ، وها إن الخشبة فى عينك ؟. يا مرائى أخرج أولا الخشبة من عينك ، وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك » . ونبى الإسلام يقول : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ويقول : « من تتبع عورات الناس فضحه الله فى عقر بيته » والقرآن يقول : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . ويقول الإنجيل : « اسألوا فتعطوا ، اطلبوا فتجدوا ، اقرعوا فيفتح لكم » . والله يخاطب نبيه فى القرآن قائلا : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون » . ويقول : « أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلا ما تذكرون » .

ويقول الإنجيل : « فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم به » ، ونبي الإسلام يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ويقول الإنجيل : « هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيداً ، والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً » والقرآن يقول : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . ويقول الإنجيل : « إذا صنعت مأدبة فادع المساكين والجُدْع والعُرج والعميان فتكون مباركا ، إذ ليس لهم ما يكافئونك به ، فتكون مكافأتك فى قيامة القديسين » . والقرآن يقول : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » والغالب أن هؤلاء يكون فيهم ذوو العاهات والأوجاع . ويتحدث الإنجيل عن غنى اغتر بماله فيقول : « يا نفس إن لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة فاستريحى واشربى وتنعمى ، فقال له الله : ياجاهل فى هذه الليلة تطلب نفسك منك ، فهذا الذى أعددته لمن يكون ؟» . والقرآن يقول : «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » . ويقول : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

وخير دستور يذكر فى هذا الباب لإحكام العمل والعدل بين مطالب الدنيا والآخرة هو ذلك الأثر الإسلامى الرائع الذى ينسب إلى عمر بن الخطاب : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

والمسيحية كالإسلام لاتقيم وزناً للعمل إلا إذا قصد به الخير ونوى معه البر ، ولذلك نرى الإنجيل يقول : « كل امرىء كما نوى فى قلبه ، لا عن ابتئاس أو اضطرار » . ونبى الإسلام يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » . بل لو اضطر المسلم إلى النطق بكلمة الكفر وإتيان أعمال الكافرين فلا ضير عليه ، ما دامت نيته معقودة على الإيمان ؛ ويستثنى القرآن من يقف هذا الموقف من بين الكافرين فيقول : « إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

والمسيحية تقول إن من يهلك نفسه فى سبيل الله ومن أجل الله فإنما هو يحييها ويخلدها ، ويكتب لها البقاء عند الله ، فنرى فى الإنجيل هذه العبارة : « من أراد أن

يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى ( يعنى من أجل الله ) يخلصها » . وهذا شبيه بقول القرآن : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ، ولكن لا تشعرون » . وقوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .. الخ . وقول أبى بكر : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ويحث الإنجيل على جمع الشمل والاتحاد ، ويحذر قومه عاقبة التفرق والانقسام ، فيقول : « كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب ، وبيت ينقسم على نفسه يسقط » . وهذه الدعوة لها حظ كبير من عناية الإسلام ، فهو يعبر عن المؤمنين بأنهم إخوة ، ويقول لهم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ويعد اجتماع المسلمين على الألفة والأخوة نعمة كبرى فيقول : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً » . ويحدث الله نبيه عن المؤمنين فيقول : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » . ويحذر الله من الاختلاف والتفرق فيقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

والمسيحية لا يهمها الظاهر بقدر ما يهمها الباطن ، ولا تلتفت إلى الأشكال والصور ، وجمال الثياب ، بل همها نقاوة القلب ، وطهارة الضمير ، وصدق العقيدة ، وعمران الباطن ؛ فيحدثنا الإنجيل عن المسيح قائلا : « وفيما هو يتكلم سأله فريسى أن يتغدى عنده فدخل واتكأ ، فأخذ الفريسى يفتكر فى نفسه ، ويقول ما باله لم يغتسل أولا قبل الغداء ، فقال له الرب : « أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والصحفة ، وداخلكم مملوء خطفا وشراً ، أيها الجهال : أليس الذى صنع الخارج هو الذى صنع الداخل أيضا ؟ » . والإسلام كذلك لا يهمه الظاهر ولا يعنى به ، بل هو يطالب بالقلب السليم والباطن الطاهر ، فيقول القرآن : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . ويقول نبى الإسلام : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » ... ويقول الشاعر العربى :

جمال الوجه مع قبح النفوس  كقنديل على قبر المجوسى

والمسيحية تفتح باب التوبة أمام المخطىء ، وتلح فى طلب الاستغفار منه ، وتقول له إن ربك كريم معطاء ، إن دعوته أجاب ، وإن سألته أعطى ، وإن قرعت بابه فتح لك ؛ ولكنها تحذر من التجديف على الروح القدس أو الإشراك بالله ، فإن ذلك

لايغفر ؛ يقول الإنجيل : « وكل من قال كلمة على ابن البشر يغفر له ، وأما من جدف على الروح القدسى فلا يغفر له » . وهكذا الإسلام يفتح الباب ذا سعة أمام المخطئين والمذنبين ، ويعد بغفران الذنوب جميعا ، فيخاطب الله عباده بهذه الآية : «قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . ويقول : « إن ربك واسع المغفرة » . ولكن الله لايغفر الكفر والإشراك ، وفى ذلك يقول : « إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وتحدثنا المسيحية عن فرح الله بعبده التائب من ذنبه ، فيصور لنا أحد الأناجيل هذا الفرح فى صور وأمثلة جميلة أخاذة ، فيقول مثلا : « أى رجل منكم إذا كان له مئة خروف فأضاع واحداً منها لايترك التسعة والتسعين فى البرية ويمضى فى طلب الضال حتى يجده ، فإذا وجده يحمله على منكبيه فرحا ، ويأتى إلى البيت ، ويدعو الأصدقاء والجيران ، ويقول لهم : افرحوا معى ، فإنى وجدت خروفى الضال ؟ . أقول لكم : إنه هكذا يكون فى السماء فرحٌ بخاطىء واحد يتوب ، أكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدِّيقاً لا يحتاجون إلى التوبة » .

وهذا يشبه قول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ما معناه : لله أفرح بتوبة عبده ممن يجد دابته الضالة فى الفلاة .

وتحبب المسيحية أهلها فى الإحسان والعطف على الفقراء ، والجود بالنفيس والعزيز ، خصوصا فى أوقات الضيق والعوز ، فيقول الإنجيل : « ولاحظَ (أى المسيح) فرأى الأغنياء يلقون تقادمهم ( صدقاتهم ) فى الخزانة ، ورأى أيضاً أرملة مسكينة قد ألقت هناك فلسين ، فقال : فى الحقيقة أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من الجميع ، لأن جميع هؤلاء ألقوا فى تقادم الله مما فضل عندهم ، وأما هذه فمن عوزها ألقت كل المعيشة التى كانت لها » . والإسلام فى هذا على وفاق مع المسيحية ، فنبى الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه : « ليست الصدقة أن تتصدق عن ظهر غنى ، وإنما الصدقة أن تتصدق وأنت شحيح فقير تخاف الفقر والعيلة » . ويصف الله المؤمنين بأنهم « يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وقال نبي المسيحية : « المر الذى تختاره لى يارب خير من الحلو الذى أختاره لنفسى » وقال نبي الإسلام وهو فى أضيق ساعة من حياته ، وأشدها عليه مخاطبا ربه : ، « إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » ، وهذا موقف يذكرنا بأبيات تلك المتصوفة الإسلامية الصادقة السيدة رابعة العدوية ، إذ تخاطب ربها قائلة :

فليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليت ترضى والأنام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

وتعنى المسيحية بمعاملة الخدم والعبيد ، وتوصى أبناءها بأن يراقبوا الله فيهم ، وأن يسيروا معهم سيرة الرفق والعدل والمساواة ، فيقول إنجيل بولس : « أيها السادة أدوا إلى عبيدكم ما هو عدل ومساواة ، عالمين أن لكم أيضا سيداً فى السماء » . والإسلام قد بلغ فى ذلك الغاية ، فالناس عنده سواسية ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لحر على عبد إلا بالتقوى ؛ ويقول الرسول بشأن الخدم : « إخوانكم خولكم ، أطعموهم مما تطعمون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم مالا يطيقون ، فإذا كلفتموهم شيئا لا يطيقونه فأعينوهم عليه » .

وتنص المسيحية على أن النساء يجب أن ينزلن على إرادة أزواجهن ، فيقول أحد الأناجيل : « وكذلك أنتن أيتها النساء اخضعن لرجالكن » . وهى لا تنسى أن توصى الرجال بالرفق بهن والعطف عليهن فتقول : « وكذلك أنتم أيها الرجال ، سا كنوهن على مقتضى العقل ، لكون الإناء النسوى هو الأضعف » .

ومثل هذا فى الإسلام ، فالقرآن يقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » . ويقول نبي الإسلام : « لو أمرت أن يسجد أحد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » . والإسلام قد نبه الرجل إلى حسن المعاملة مع النساء ، لأنهن كما يقول رسول الإسلام ناقصات عقل ودين ، وكذلك يقول نبينا عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله فى النساء » . إلى غير ذلك من الأحاديث .

والمسيحية توجب طاعة الوالدين على الولد ، ولكنها لا تبيح له أن يطيعهما فى معصية الله ؛ جاء فى أحد الكتب المسيحية ( إيضاح التعليم المسيحى ص ٤٥٢ ) هذه المحاورة:

« س — هل يجب علينا أن نطيع والدينا فيما يخالف ناموس الله تعالى ؟.

ج — حاشا وكلا ، بل طاعتنا لله الذى هو أبونا السماوى أفضل لنا حينئذ من طاعة الناس الذين هم آباؤنا الأرضيون » .

وكذلك الشأن فى الإسلام، فالقرآن يخاطب الابن فى شأن أبويه قائلا : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

وتلتفت المسيحية إلى الناحية العملية فى الحياة ، فتعطيها حقها من العناية والاهتمام ، فهى لا تكتفى بأن يكون ابنها مسيحيا بكلامه ، بل لا بد من العمل ، ولذلك تقول رسالة القديس يعقوب : « ما المنفعة يا إخوانى إذا قال أحد إن له إيمانا ولا عمل له » ؟ وهذه العبارة تذكرنا بما ذهب إليه جمهور علماء المسلمين من أن الإيمان قول وعمل ، وأن الإيمان باللسان دون الإيمان بالعمل لا قيمة له ، والله يقول : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى » . ويقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » . ويقول : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

ونبى المسيحية عيسى عليه السلام يضرب لأتباعه المثل الأعلى فى الجهاد والتضحية من أجل العقيدة والمبدأ ، فهذا أحد الأناجيل يتحدث عنه فيقول : « إنه لا يكل ولا يمل حتى يضع الحق فى الأرض » . وهذا المثل الأخلاقى السامى يشبه إلى حد كبير ذلك المثل الأخلاقى الفذ الذى يضربه لنا نبى الإسلام إذ يقول حينما رأى قومه وعمه يحاولون رجعه عن غايته وجهاده فى سبيل الله ، ويعرضون عليه الملك والمال والرياسة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته » !...

لعل فى هذه الأمثلة والشواهد المتعددة ، التى يوجد لها أشباه ونظائر فى كل من الدين المسيحى والدين الإسلامى ما يجعلنا نؤمن الإيمان كله بأن المسيحية تتفق مع الإسلام فى الدعوة إلى أصول الأخلاق ونبيل العادات ، فقد رأينا أن كلا منهما قد أوجب على معتنقيه المحافظة على مال الغير وعرضه وعقله وعقيدته وشرفه ، ودعاهم إلى أخلاق المروءة والنجدة ، والشجاعة والجهاد ، والرغبة عن الزخرف والاهتمام باللباب

وطرح القشور ، وشرع كل من الدينين لمعتنقيه تعاليم المعاملة الصالحة مع الوالدين والأسرة والأهل والأقارب والمواطنين والناس أجمعين ، ودعاهم إلى عمارة الكون والسعى فى سبيل الحياة ، والعمل على السمو بالنفس البشرية إلى حيث تشبه الملائكة الأطهار .

## لين وقوة

كذلك لاحظنا أن كلاً من الدينين قد جمع بين أخلاق اللين وأخلاق القوة ، ولست أقصد بالقوة التجبر أو الاعتداء ، وإنما أريد أن أدفع عن الدين مسبة يلصقها به بعض الناس ، وهى قولهم إن الأديان تعلم أبناءها أخلاق الضعف والذل والهوان والمسكنة ، بما تحثهم عليه من رحمة وشفقة وعطف زائد ، واتكال على الأقدار واستسلام للقضاء ، ورضى بالنوازل ؛ وتفسح أمام الضعفاء ميدان التوانى والكسل والتسول ، بما تشرعه من زكاة وصدقة وإحسان ؛ وتلك مسبة كاذبة خاطئة ، فالدين الذى يحث على الرحمة والرفق والتعاطف بين الناس ، هوهو بنفسه الذى يدعو إلى العزة والترفع عن الصغائر ، والجهاد فى سبيل العيش ، والعمل لرفع مستوى الحياة الإنسانية ، وهوهو بنفسه الذى لا يحب لأهله أن يكونوا عالة على غيرهم ، أو يرضوا بعيشة الهون أو حياة الضعة ؛ بل يحملهم على حياة كلها جهاد ونضال وعمل شريف ! . . .

وحسبك أن تسمع محمداً عليه الصلاة والسلام يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب به على ظهره خير له من أن يأتى الناس فيسألهم ، أعطوه أم منعوه » حتى تقر بالإذعان والخضوع .

## الخطايا المميتة والكبائر

وقد لاحظت من مظاهر الاتفاق بين المسيحية والإسلام فى الأخلاق أنه يوجد فى المسيحية ما يسمى « خطيئة مميتة » « وهى مخالفة ثقيلة لشريعة الله تعدمنا النعمة الإلهية التى هى حياة أنفسنا ، وتجلب علينا الهلاك الأبدى » (١) ، وهذه تشبه « الكبيرة » فى الإسلام ، وهى الذنب الكبير الذى يوجب سخط الله أو حدّه ، أو ما توعد عليه

---

(١) هذا تعبير مسيحى .

توعدا شديداً . ويوجد فى المسيحية « خطيئة عرضية » « وهى مخالفة خفيفة لشريعة الله لا تستوجب عذاب جهنم » ، وهذه تشبه « الصغيرة » فى الإسلام .

ويتفق الإسلام مع المسيحية فى عد اليأس ، والإصرار على الإثم ، والحسد ، ومقاومة الحق الواضح ، وعدم التوبة حتى الموت ، والقتل ، والكبرياء ، والبخل ، والزنا ، والشراهة والغضب ، والظلم ، والغدر ، وهتك العرض ، وما شابه هذه المآثم من الخطايا الكبائر التى « تصرخ إلى الله بطلب الانتقام » وهذا تعبير مسيحى لا نعدم مثله فى الإسلام .

## تحليل المعانى الأخلاقية

كذلك من مظاهر الاتفاق أننى لاحظت أن كتّاب الأخلاق فى كل من الدينين عندما يبدأون فى شرح كلمة من الكلمات الأخلاقية ، أو لفظ من الألفاظ الدالة على عادة من العادات يحللونها تحليلا طويلاً ، ويجعلون الخلق الواحد يشمل عدة أخلاق كثيرة ، وذلك لأنهم يتوسعون فى معنى الكلمات ، حتى تشمل ما يقاربها من معانى الأخلاق ؛ فكلمة « السرقة » مثلا فى المسيحية تشمل السرقة القانونية المعروفة ، وتشمل الغش فى البيع ، وتطفيف الكيل ، والربا ، والخداع ولو فى اللعب ، وعدم الوفاء بالعهد ، والخيانة فى العمل .

هذا كتاب مسيحى ألفه بعض الشمامسة يتحدث فى محاورة عن تحليل الوصيتين السابعة والعاشرة من « الوصايا العشر » وهما : « لا تسرق ، لا تشته مقتنى غيرك » وفيها يقول :

« س — وما الذى ينهانا الله عنه بهاتين الوصيتين ؟ .

ج — إنه عز وجل ينهانا بهما عن اختلاس مال الغير ، وبألا نشتهيه ، ولا نسبب له ضررا ولا نرغبه له .

س — من هم الذين يخطئون ضد هاتين الوصيتين ؟ .

ج — هم ( أولا ) الذين يبتاعون الأشياء بثمن دنىء من أناس أغبياء لا يعرفون ثمنها ، أو من الذين سرقوا ذاك الشىء الذى يبيعونه . ( ثانيا ) الذين يبيعون بثمن يفوق الثمن الواجب أو بميزان ومكيال زور . ( ثالثا ) الذين يغشون فى اللعب . ( رابعا ) الفقراء المراؤون الكذبة . ( خامسا ) المرابون ( سادسا ) الذين يتعاملون بدراهم زغل ( باطلة )

( سابعا ) الذين يؤخرون وفاء ديونهم وكراء أجرائهم ، ( ثامنا ) الذين يحفظون حجج الناس . ( عاشرا ) الذين بجهلهم أو بتوانيهم يضرون القريب . ( حادى عشر ) الذين يشتهون ضرر الغير لينتفعوا منه ، مثلا كالأطباء إذا اشتهوا الأمراضَ والجنودِ الحربَ والقضاةِ الخصوماتِ وما شاكل ذلك . ( ثانى عشر ) الذين قيموا ( نُصبوا ) لتوزيع الجزية إن كانوا لا يوزعونها بإنصاف . ( ثالث عشر ) الصناع والفعلة الذين لا يشتغلون بأمانة . ( رابع عشر ) الخدام الذين يتصرفون بمال أربابهم دون إذنهم . . . أخيرا الأولاد الذين يسرقون مال والديهم » . .

والحال كذلك عند علماء الأخلاق فى الإسلام ، فهم إذا تكلموا مثلا عن «الظلم» أدخلوا فيه ظلم الإنسان لغيره ، وظلمه لنفسه ، وجعلوا منه عدم القيام بالواجب نحو الزوجة ، أو الوالدين ، أو الجاهل المحتاج إلى النصيحة ، أو المسكين المحتاج إلى الصدقة ، أو العدو الذى أعمته العداوة ؛ وغير ذلك . . وحسبك أن تسمع هذه الكلمة التالية عن الظلم لأحد علماء الإسلام لكى تؤمن بما ذكرت ؛ قال :

« لا تحسبن الظلم أن تظلم غيرك فى مال أو شركة أو خصومة فحسب ، بل من الظلم ظلمك لنفسك ، حينما تراها فاجرة فلا تردعها ، أو حينما تراها جاهلة فلا تعلمها ، ومن الظلم ظلمك لغيرك إذا قلت فى عرضه كلمة سوء ، أو اعتديت على شرفه أو محارمه ، ومن الظلم ظلمك لزوجتك حينما تهمل حقوقها وتقسو عليها ، ومن الظلم ظلمك لوالديك حينما تجحد فضلهما وتنكر سابق أياديهما ، ولا ترد لهما بعض هذا الإحسان ، ومن الظلم أن ترى شخصاً يحتاج إلى إرشاد أو نصيحة فلا تقدمها إليه خالصة ، ومن الظلم أن تمر بالمسكين الجائع وأنت غنى فلا تتصدق عليه ، ومن الظلم أن ترى عدوك يعتدى عليك فتلقاه بالمثل أو بما يزيد ، ولا تفكر فى العفو عنه أو مهادنته لكى يصبح وكأنه ولى حميم . . »

والإمام الغزالى مولع فى كتبه الأخلاقية بتحليل الأخلاق ، وتقسيم كل عادة وكل خلق إلى أقسام ومراتب ، فليرجع من شاء إلى كتاب ككتاب الإحياء ليجد مصداق ما أقول .

## محاولة تقريب

هذا وقد جلست مع أحد المثقفين المسيحيين ، فذكر لى أن الأخلاق المسيحية عندهم تكاد تجتمع فى هذه الأخلاق :

«المحبة ، الإيمان ، الرجاء ، العمل لخلاص الآخرين ، إنكار الذات ، التواضع ، الفرح مع الفرحين ، البكاء مع الباكين ، خدمة البشرية ، المسامحة والغفران ، العفة ، العطاء ، الوداعة ، التضحية ، العمل ، الصدق ، الرحمة ، الإخلاص والأمانة ، نقاوة القلب ، المساكين بالروح ، الحزن على الخطية ، الجوع والعطش إلى البر ، نشر السلام ، عدم الغضب ، الطهارة ، الصوم فى السر ، الاتكال على الله ، الصبر ، الصلاح ، الولادة الثانية ( التجديد ) ، التكريس ، بنوة الله ، مسيح على الأرض » .

فقلت له : وهذه الأخلاق تشابه ما عندنا فى الإسلام . فقال : كلا ، فإن الأخلاق الأربعة الأخيرة وهى : الولادة الثانية ، والتكريس ، وبنوة الله ، ومسيح على الأرض ؛ لا توجد فى الإسلام ، فأجبته : قد توجد إذا اتفقنا على معانيها والمراد منها . فإن التكريس عندكم على ما ذكرتَ لى هو ما يُقصد من قولهم اليوم : «الخدمة العامة» وهذا خلق قد حث عليه الإسلام وندب إليه ، فقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وقال نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام : « ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط » . وقال : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » . وقال : « من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

وأما الولادة الثانية ، فأنتم تقصدون منها على ما فهمت من حديثك أنه يجب على المسيحى المخطىء المذنب الذى أمات قلبه وروحه بالمآثم والخطايا أن يراجع نفسه ، وأن يتوب ، وأن يتطهر ، فإذا فعل ذلك فكأنه أحيا نفسه ، وهذا المعنى موجود فى الإسلام ، وإن لم يسم بما به يسمى عندكم ، فقد قال بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » إن المراد بالقتل هنا ليس القتل الحقيقى ، وإنما المراد هو القتل المجازى ، وذلك بإكباب العبد على المعاصى ، وانغماره فى تيار الشهوات ، فإنه بذلك يهلك نفسه ويميتها ، فالتوبة تمحص العبد وتطهره ، وتعيده إنساناً آخر غير الذى كان ، يوم كان

مثقلا بالذنوب والمعاصى ، وفى الحديث أن من حج حجا مبرورا رجع كيوم ولدته أمه ، فكأن الحج المبرور بما يتضمنه من توبة واستغفار ، واتصال مباشر بمنزل الوحى ، وعزم على تقوى الله والاستقامة على طريقه ، قد ولد الشخص مرة ثانية ، فعادت صحيفته بيضاء كأن لم يكتب فيها شىء .

وكذلك نجد القرآن الكريم يشير إلى هذا فى قوله : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بيّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . فإذا كان الله يحيي الأرض الموات بالغيث ، فتنتج الزرع وأنواع النبات ، فكذلك هو يحيي القلوب ، ويخلقها من جديد ، بالتوبة النصوح ، والرجوع الصادق إلى صراط العزيز الحميد .

وأما بنوة الله فأنتم يجب أن تقصدوا منها المعنى المجازى لا المعنى الحقيقى ، فإن الله لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ؛ ولعلكم تريدون منها الصلة الوثيقة التى تصل بين الخالق والمخلوق ، وبين الموجد والموجَد ، وبين المؤثر والأثر ، وتريدون منها ما يكون من العبد من خضوع وإخبات لربه حتى يستوجب رحمته ؛ وحتى يكون أهلا لأن يتشرف بالنسبة إليه والدخول فى حماه ، وهذا يشبه عبودية المسلم لربه ، وافتخاره بحصوله على هذه الرتبة ، فالله لا يقول : « ياعبادى » إلا فى مواقف الفضل والخير : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ». ويخاطب الله الشيطان قائلا : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » . ويقول لنبيه : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » . ويتحدث القرآن عن عيسى عليه السلام فيقول : « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً » . ويقول عن سليمان : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » ويقول : « وبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . ولذلك يفتخر الشاعر الإسلامى بعبوديته لله ، فيقول مخاطباً ربه :

ومما زادنى شرفا وتيها وكدت بإخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

• •

أما قولكم « مسيح على الأرض » فلعلكم تقصدون منه أن يتشبه المسيحى بعيسى عليه الصلاة والسلام فى أخلاقه وأفعاله وأقواله ، ويحاول — ولن يستطيع — أن يكون صورة كاملة منه ، وهذا يشبه مايوجد عندنا نحن المسلمين ، من وجوب الاقتداء بمحمد عليه الصلاة والسلام ، لأن من رغب عن سنته وأخلاقه فليس منه ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله .

## بعض الفروق

لكن هل معنى هذا أنه لايوجد من فروق بين الأخلاق فى المسيحية والإسلام ؟ . كلا ، فهناك بلا شك فروق ، لكنها ليست فى الأصول ، ومن السهل التأويل فى مواضع هذه الفروق المحدودة المعدودة ليمكن التوفيق بين الإسلام والمسيحية .

وسأذكر بعض هذه الفروق فى إيجاز ، فقد طال الحديث ، وقد كان بودى أن أقف أمام هذه الفروق لأفضّل رأيا على رأى ، أو أعرض وجوها للتأويل يتحقق بها التوفيق أو التقريب ، ولعل ذلك مستطاع لى فى فرصة أخرى إن شاء الله .

من الفروق أن المسيحية لاترى مقابلة الاعتداء بمثله ، ولا مقاومة السوء بجزائه ، فالإنجيل يقول : « قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن ، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر ، ومن أراد أن يخاصمك فخل له رداءك أيضاً ، ومن سخرك ميلا فامش معه اثنين » .

أما الإسلام فهو يقول بالقصاص ، وبمقابلة الاعتداء بمثله ، وذلك مع تحبيبه فى العفو وعدم الإسراف فى المجازاة ، فالقرآن يقول : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

ويحبب القرآن المؤمنين فى تحمل الأذى من أهل الكتاب والمشركين وإن كان كثيرا فيقول : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

ويقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . ويقول : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ويقول : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن و الجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . ويقول : « ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ». ويقول : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب عظيم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

ومن الفروق أن المسيحية توجد فيها هيئة دينية لها الحق فى وضع الوصايا ، ومن الواجب الحتم على المسيحيين أن يطيعوها ، وإلا أخطأوا خطيئة مميتة ، وهذه الهيئة هى الكنيسة ، وسلطانها مستمد من الله : « ومن لا تكن الكنيسة أُمًّا له على الأرض لا يكون الله له أبًا فى السماء » كما يقول أحد القديسين .

أما الإسلام فلا يوجد فيه هيئة دينية ، فليس هناك رقيب عليك أو محاسب لك فى أخلاقك أو عقيدتك أو عملك ، إلا الله علام الغيوب

وينبنى على الفرق السابق فرق آخر ، وهو أن المسيحى يجب عليه إذا أخطأ أن يعترف بأخطائه وذنوبه أمام الكنيسة ، لينال بركتها ولتمحو عنه هذه الذنوب ، ولذلك تقرأ بين « وصايا الكنيسة » المشهورة هذه النصيحة : « اعترف بجميع خطاياك ، ولو مرة واحدة فى السنة على الأقل » . وهذا ليس موجودا فى الإسلام ، فليس فيه من واسطة بين العبد وربه ، فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا عبدت فاعبد الله ، وإذا أطعت فأطع الله ، وإذا أخطأت فاستغفر الله ، وإذا اعترفت فبينك وبين الله ؛ بل إنك تذنب إذا ذكرت مآثمك وأخطاءك لإنسان ، وإن من المجانة أن يعمل أحدكم بالليل عملا ، ثم يصبح فيقول يافلان قد فعلت البارحة كذا وكذا ، فيكشف ستر الله عنه ، وقد بات يستره الله ؛ كما جاء فى الحديث النبوى الشريف .

ومن الفروق أن المسيحية تهتم الاهتمام كله بالروح ، ولا تقيم للجسد كبير وزن ،

وقد ذكر لى أحد المسيحيين أنه يجوز للمسيحى أن يقوم فى فراش زوجته وهو جنب فيصلى دون أن يتطهر ، والإنجيل فى بعض المواطن يتحدث عن الروح والجسد ، فيجعل الشأن للروح ولا يلتفت للجسد ، وهذا بخلاف ما فى الإسلام ، فالإسلام يعرف للروح حقوقها ، ويطالب بتطهيرها والتسامى بها ، ويجعل مجاهدة النفس وتخليصها من شرورها وأغراضها الدنيئة أكبر عمل يقوم به المسلم ، ولذلك نرى النبى صلى الله عليه وسلم يقول لقومه وقد رجع من إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فقتال الميدان وطعان الأقران عنده جهاد أصغر ، ومجاهدة النفس لتطهيرها جهاد أكبر ، ومع ذلك فهو لا ينسى شأن الجسد ، ولا ينسى مطالبه الدنيوية ، ولا يتغافل عن الأمر بالعناية به ، ولذلك يقول نبى الإسلام : « إن لبدنك عليك حقا » .

* * *

بقى على بعد هذا الحديث الطويل أن أختم كلامى بالتعرض لمسألة هامة ، ألا وهى معاملة المسيحى للمسلم ، ومعاملة المسلم للمسيحى ، وبالأخص فى هذا الزمان ، فالمسيحية تنص على معاملة الجميع بالحسنى ، بل وتوصى بأن يحب المسيحى أعداءه ، وفى أحد الأناجيل : « احذروا أن يكافىء أحد آخر على شر بشر ، بل اقتفوا الإحسان ، بعضكم إلى بعض ، وإلى الجميع » . وكذلك الإسلام قد أمر بالحسنى ، وحث قومه على معاملة المخالفين لهم فى العقيدة بمقتضى العدل والقسطاس ، بل قال الرسول العربى : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » . وقال القرآن يخاطب المسلمين فى شأن معاملة غير المسلمين : « لا ينهاكمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتلوكم فى الدِّين ولم يخرجوكمْ مِنْ دياركم أنْ تَبروهم وتقسطوا إليهمْ إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين ، إنما يَنهاكمُ اللهُ عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرَجوكم مِنْ دياركم وَظاهرُوا على إخراجكم أنْ تولَوهم ومَن يَتولهمْ فأولئك همُ الظالمون » . بل يخص القرآن النصارى فى آياته بالمدح ، ويصفهم بأنهم إذا استمعوا الحق رقوا له ومالوا إليه ، فيقول : « لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربَهمْ مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأنَّ منهمْ قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترَى أعينهمْ تفيضُ منَ الدَّمع مِما عرفوا منَ الحقِّ ، يَقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . ويأتى النبى بتخصيص للخاص ، فيقول فى شأن المسيحيين المصريين

(القبط)[1] : « إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً ، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة فاخرجوا منها » . وفى رواية : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لهم منكم صهراً وذمة » . ويقول الرسول : « الله الله فى قبط مصر ، فإنكم ستظهرون عليهم ، ويكونون لكم عدة وأعواناً فى سبيل الله » . وفى رواية : « فإنهم قوة لكم . وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله » . ويقول : « إن خير أجنادكم أهل الغرب منكم (مصر) فاتقوا الله فى القبط » . ويقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » .

## ثمرة هـذا البحث

هذا هو ماتأمر به المسيحية ويأمر به الإسلام ، من المعاملة الحسنة بين الناس جميعاً ، وذاك مايؤكد حسن المعاملة بين المسلمين والنصارى بوجه خاص ، وذلك مايؤكد حسن المعاشرة بين المسلمين والقبط بوجه أخص ، فأين مصداق ذلك فى معاملتنا اليوم ؟ . أفى الحق أن المسيحى المصرى يعامل المسلم المصرى كما يأمره دينه ؟ . أفى الحق أن المسلم يعامل المسيحى بما يأمره دينه ؟ . . . كلا ، فهناك بعض من المسيحيين لا يفهمون روح الدين ، فيسيئون معاملة المسلمين ، وينفرون منهم ، ويضيقون بهم ، ويفترون عليهم ، ويشوهون محاسنهم . وهأنذا أتناول أحد الكتب المسيحية فأقرأ فيه هذه القصة :

« جاء فى تاريخ مدام بوتشر أن أحد القواد المسيحيين فى الجيش النوبى وقع أسيراً فى يد قائد مسلم . فأخذ يعذبه بكل أنواع العذاب ، وكان يهزأ بالديانة المسيحية وأقوالها الذهبية . ويقول إنكم أيها المسيحيون لجبانين إذ تخضعون لديانة تقول : من ضربك على خدك الأيمن حول له الأيسر . وقد اتفق بعد قليل أن جيش القائد المأسور قد انتصر على جيش العدو ، ووقع القائد السابق الذكر فى قبضة القائد المسيحى ، فأخذ فى معالجته وراحته ، فلما رأى القائد المسلم ذلك ظن أنه لم يعرف أنه هو الذى كان يعذبه ، وعرض

---

(١) كلمة القبط محرفة عن كلمة « إيجبتس » اليونانية ومعناها المصريون ، خرفت إيجبتس إلى إيجبت ثم إلى جبت ثم إلى قبط ، ولما فتح العرب المسلمون مصر ودخل أكثر المصريين فى دين الفاتحين سموا مسلمين ، وبقى المسيحيون المصريون يعرفون باسم « القبط » ، ولكن أضيف إلى معناها الإشارة إلى دينهم الذى ظلوا عليه ، فيقصد حينئذ بكلمة « قبط » نصارى مصر ، أو المسيحيون ، وإذن فكل قبطى مسيحى ولا عكس كتعبير الأزهريين .

عليه الإسلام وأخيراً ناداه القائد المسيحى باسمه : كيف صحتك ؟ فعرف فى الحال أنه عارف به فتأكد منه ، فقال له : يا سيدى كيف تعاملنى بهذه المعاملة مع أنى أنا الذى عذبتك بالأمس ؟. أما هو فأجابه قائلا : لاتخف فإن الدين الذى قال : من ضربك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، لم يزل فى قلبى ، ففى الحال خر على وجهه واعتنق المسيحية » .

أقرأ هذه القصة فأعرف أنها موضوعة ، وأن التعصب للدين هو الذى نسج أمثال هذه القصص فى المسيحية وأشباهها فى الإسلام ، ولو صحت هذه القصة السابقة لما سلّمت بتمام إسلام هذا القائد ، فما يأمر الإسلام بمثل هذه القسوة ، ومعاملةُ الأسارى فى الإسلام مضرب الأمثال ، ووقفة أمام تاريخ صلاح الدين الأيوبى تعطيك أصدق الشواهد على ما أقول ، وقواد الإسلام فى جميع العصور كانوا مضرب الأمثال فى المروءة والشهامة والاعتدال .

افترى بعض المسيحيين على المسلمين الأكاذيب ، وطعنوهم شر الطعنات ، ووجهوا إليهم وإلى دينهم كاذب التهم ، وجعلوا بينهم حجابا كثيفا ؛ وكذلك فعل بعض المسلمين مع بعض المسيحيين ، فقد بلغت الحماسة الدينية عند بعض المسلمين مبلغا جعلهم لا يراعون حرمة إخوانهم فى الإنسانية ، ويكفيك شاهدا على ذلك أن بعض الجهلة من المسلمين يعتقدون أن فم المسيحى نجس .

وقد شاهدت فى قريتنا امرأة عامية تكسر « قلة » جديدة لأن مسيحياً شرب منها ، فحاولت أن أفهمها ما فى عملها من الخطأ ، فأصرت على أن فم المسيحى نجس ، ولم تصدق قولى ، وكذلك حدث أن مات أحد الأدباء المسيحيين فذهبت لأواسى أهله ، فغضب بعضهم علىّ وعدوها سوأة منى ، وليس فيها والله من سوء ، وإن دينا يمنع أهله من مواساة الناس أيا كانوا فى كوارثهم ومصائبهم لهو دين جامد خليق بالفناء ، وحاشا للاسلام أن يمنع أهله من التخلق بأخلاق الشهامة والمروءة ؛ وكيف يمنع الإسلام أن تحسن معاملتك لكل كائن من الناس ، وهو أخ لك فى الإنسانية وفى العبودية لله ؟...

كيف يمنع الإسلام مثل هذا الواجب الإنسانى الذى لا يكلفك كثيراً ولا قليلا ، مع أننا نقرأ فى حديث رسول الله عن ابن أبى ليلى أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد كانا قاعدين بالقادسية ، فمرت بها جنازة ، فقاما لها ، فقيل : إنما هو من أهل الذمة ،

فقالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا عليه بجنازة فقام لها ، فقيل له : إنه يهودى ، فقال : أليست نفساً ؟...

نعم يا سيدى يا رسول الله ، إنها نفس ، نفس لها حرمتها الإنسانية ، وإنه الموت له جلاله وعظته ، فإذا مر علينا مثل هذا الحادث ولم نتعظ به ولم نلتفت إليه فكيف نكون من الناس ؟ أو كيف نصح لنا أن ندعى أننا من أصحاب القلوب ؟ . .

وماذا تقولون فيما أُثر عن معاملة الرسول الكريم لمن جاوره أو عرفه من اليهود ، وقد كانت غاية فى الرقة والإحسان ، مع أن اليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا بشهادة القرآن الذى قدمهم على المشركين فى الآية السابقة ، ليشعرك بأنهم فى العداوة للمؤمنين أخطر من المشركين ؟ . . .

لا لا أيها المسيحيون . . . ولا لا أيها المسلمون . . فلنتخلق بأخلاق الدين ليمكننا أن نصل يوماً من الأيام إلى الأخوة الصادقة ، والاتحاد الصحيح ، وليصل الجميع يوماً إلى الدين الصحيح الذى يجمع الناس على عبادة الواحد الخلاق . .

تعالوا بنا ننس الأحقاد والضغائن ، ولننزع من قلوبنا العصبية العمياء وحب الهوى ، ولنبحث عن الحق الصحيح دون تأثر بأدنى مؤثر . . تعالوا نتصافى ونتكاتف ، توحد بيننا عقيدة الأخلاق الفاضلة ، والأخوة الصافية ، والوطنية الصادقة ، والإنسانية البريئة ، وسيأتى يوم قريب ، إن أصخنا لصوت الله والحق ، نجتمع فيه بعد فرقة ، ونقوى بعد ضعف ، والله القادر على أن يحقق الأمل ، ويجيب الرجاء ، إنه سميع مجيب الدعاء ؟

---

# تحية الكتاب

كنت قد عزمت على طبع هذا الكتاب فى أواخر شهر سبتمبر سنة ١٩٥١م ، وما خطوت الخطوة الأولى حتى فوجئت بقرار أصدره الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، يقضى بنقلى من معهد القاهرة إلى معهد سوهاج ، ولم أكن أتوقع ذلك ؛ فشُغلت عن طبع الكتاب ، كما شغل كثيرون من الأماثل بهذا النقل ، وتفضل مَن لا أنسى صنيعهم فتكرموا بالدفاع عنى ، وكان فى طليعة هؤلاء أصحاب المعالى والسعادة والعزة والفضيلة : محمد صالح حرب باشا ومنصور فهمى باشا وعبد القادر بك مختار والأستاذ أحمد بك الشايب والأستاذ محمد على الطاهر والأستاذ محمد شاهين حمزة والأستاذ حسين يوسف والشيخ محمد الشربينى والدكتور محمد يوسف موسى والشيخ محمود خليفة والأستاذ وديع فلسطين ؛ وكثيرون من الصحاب والأحباب ، أطوى فؤادى على الشكر العميق لهم ، وإن لم أذكر هنا أسماءهم ؛ وهأنذا أسجل هنا بعض ما كتب هؤلاء الأجلاء بمناسبة نقلى ، حتى يكون ذلك تحية لهذا الكتاب ، ورب ضارة نافعة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ...

١ — بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥١م تفضل حضرة صاحب المعالى اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية فكتب الخطاب التالى إلى شيخ الأزهر ، وكان فى أسوان حينذاك ، وقد تفضل سعادة الدكتور منصور فهمى باشا مشكوراً فحمل هذا الخطاب شخصيا إلى شيخ الأزهر ، ونصه :

« حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد علم المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بنبأ نقل صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى إلى معهد سوهاج الدينى .

ولما كان فضيلته يُعتبر من أقوى الدعائم فى نشر الدعوة الإسلامية ، وهى دعوة الجمعية بنواحيها العلمية والأدبية والاجتماعية ، عن طريق المحاضرات النافعة التى يلقيها

بمنبرها ، إبان مواسمها الثقافية السنوية ، ويؤمها جمع غفير من طلبة الجامعة الأزهرية وجامعة فؤاد الأول ، وكثير من أبناء الأقطار الإسلامية الذين يحرصون كل الحرص على الاستماع إلى هذه المحاضرات ، وأصبحت علاقتهم بفضيلته ذات أثر خالد ، يوصل الدعوة الإسلامية إلى قلوبهم ، ويبعث فى نفوسهم الآمال الباسمة ، والحرص على التعلق بآداب الشريعة الغراء ، والتزود من مناهلها السمحة .

وبما أن هذه المهمة الطيبة تتفق فى وجهتها مع أهداف الأزهر المعمور ، وفضيلتكم فى طليعة المقدرين للأعمال النافعة ، والعاملين على تحقيقها وازدهارها ، فإنى أرجو شاكراً تفضلكم بإبقاء الأستاذ بمعهد القاهرة ، حتى يتمكن من القيام برسالته الإصلاحية على الوجه الأكمل . وتفضلوا بقبول أزكى تحياتى .

محمد صالح حرب

الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين

وقد نشرت جريدة « المقطم » الغراء هذا الخطاب الكريم بتاريخ ٣ أكتوبر ، وعلقت الجريدة عليه بقولها : « ونحن نضم صوتنا إلى صوت سعادة حرب باشا ، وأصوات الكثير من تلامذة الأستاذ الشرباصى الذين ألحوا علينا فى أن ننقل إلى شيخ الأزهر رجاءهم إبقاء الأستاذ الشرباصى فى القاهرة ، خدمة للدين والثقافة الدينية » .

***

٢ — وكتب حضرة صاحب العزة الأستاذ الكبير عبد القادر مختار بك السكرتير العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥١ م الخطاب التالى :

« حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد طلعت علينا الصحف اليوم بخبر نقل فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى إلى معهد سوهاج الدينى ؛ وقد هال هذا النقل المركزَ العام لجمعيات الشبان المسلمين الذى يعتبر دعوة فضيلة الشيخ الشرباصى الدينية والعلمية والأدبية دعامة قوية لنجاح المواسم الثقافية للجمعية التى

يختص أبناء الأزهر الشريف بنصيب موفور منها سنويا ، وأصبحت علاقة الأستاذ الروحية بمن يغذيهم بمحاضراته النافعة ذات أثر خالد ، يهم الشبان المسلمين أن يحافظوا عليه ، ويعملوا جاهدين على أن يظل هذا الأستاذ مظهراً مشرفا لتأدية رسالتهم على الوجه الأكمل .

لذلك يسر الجمعية أن تتفضلوا فضيلتكم بالأمر ببقائه فى القاهرة ، حتى يستمر فضيلته فى تأدية هذه الرسالة الإسلامية ، المتفقة مع مايهدف إليه الأزهر المعمور من صالح الأعمال . وتفضلوا ياصاحب الفضيلة بقبول عظيم الشكر وفائق الاحترام .

عبد القادر مختار

السكرتير العام لجمعيات الشبان المسلمين

***

٣ — وبتاريخ ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٣٧٠ أرسل الأستاذ الكبير حسين يوسف رئيس جمعية شباب محمد صلى الله عليه وسلم إلى شيخ الأزهر الرسالة التالية :

« حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد قرأنا أخيرا فى الجرائد نبأ نقل فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى من معهد القاهرة الثانوى إلى معهد سوهاج ، فكان له أعمق الأثر فى نفوسنا ، لما لفضيلته من مجهود كريم فى الإرشاد العام ، سواء أكان ذلك بدور الهيئات الإسلامية المختلفة ، أم على صفحات جرائدها ، الأمر الذى نعتقد أنه يشرف الأزهر ، لأنه يتفق مع رسالته الحقيقية فى نشر هداية الإسلام بين الناس ، وإيضاح تعاليمه السامية لهم .

ولا شك أن نقل فضيلته سيقضى إلى حد كبير على ذلك المجهود ، فى الوقت الذى تحتاج فيه العاصمة إلى مضاعفته ، نظرا لتفاقم أسباب الفتنة والضلال فيها أكثر من الأقاليم ، الأمر الذى يجعل هذا النقل بمثابة تعطيل لرسالة الأستاذ الشرباصى ، وهو ما نعتقد أنكم لا توافقون عليه بحال من الأحوال .

لذلك فإن لنا وطيد الأمل فى أن تتكرموا بإعادة النظر فى هذا القرار بما يحقق صالح الدعوة الإسلامية التى لا شك فى حرصكم على نجاحها ، وتوفير أسباب إذاعتها بين الناس . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام » ؟

حسين يوسف

رئيس شباب محمد صلى الله عليه وسلم

***

٤ — وبتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥١ م نشرت جريدة المقطم الغراء هذه الكلمة تحت عنوان : « رجاء إلى شيخ الأزهر بعدم نقل الأستاذ الشرباصى » :

« نشرت بعض الزميلات أن مشيخة الأزهر قد أصدرت قرارا بنقل الأستاذ أحمد الشرباصى من وظيفة التدريس بمعهد القاهرة إلى معهد سوهاج الدينى ، وقد كان هذا القرار مفاجئا للكثيرين ، لأن الأستاذ الشرباصى له نشاطه الواسع فى الجمعيات الدينية والأدبية بالقاهرة ، وهو يشارك بثمرات قلمه فى كثير من الصحف والمجلات . ولذلك تعد إقامته فى القاهرة شيئا يستوجب الانتفاع بجهوده العلمية والأدبية .

وقد تلقينا من كثير من القراء التماسات موجهة إلى فضيلة الأستاذ الأكبر أن يلغى هذا النقل ليبقى الأستاذ الشرباصى ، فينتفع بتوجيهاته طلابه وجمهور سامعيه ، ونحن نضم صوتنا إلى التماسات هؤلاء ، راجين أن يعطيها المسئولون فى الأزهر ما هى أهل له من العناية والاهتمام » .

***

٥ — وبتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥١ أيضا أرسل الأستاذ الكبير محمد شاهين حمزة رئيس جمعية الرابطة الإسلامية خطابا هذا نصه :

« حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

تحية واحتراما : وبعد ، فإن جمعية الرابطة الإسلامية تنهض بقسط كبير فى خدمة الدين وخدمة الثقافة الإسلامية فى المجتمع المصرى ، ويعاون الجمعية فى جهودها طائفة كبيرة من أفاضل العلماء والأدباء .

وبما أن فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى فى مقدمة هؤلاء الذين يتوافرون على خدمتها ، وقد علمت الجمعية بأنه صدر قرار بنقله إلى سوهاج ، فنكون ممتنين جدا لو تفضلتم فأمرتم بإلغاء هذا القرار وإبقائه فى القاهرة ، ليواصل عونه الدينى والثقافى لهذه الجمعية التى تحب أن تكون هى ومن يعاونها موضع رعاية فضيلتكم الجليلة .

وتفضلوا بقبول وافر الإجلال والاحترام » ؟

محمد شاهين حمزة

رئيس جمعية الرابطة الإسلامية

***

٦ — وبتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥١ م نشرت مجلة « الاعتصام » الغراء وهى مجلة الجمعية الشرعية هذه الكلمة بعنوان « نقل عالم جليل » :

« نُقل صاحب الفضيلة الشيخ أحمد الشرباصى من معهد القاهرة إلى معهد سوهاج ، ومجلة الاعتصام التى يمدها الأستاذ الفاضل بمقالات التفسير الرائعة ، التى نشهد لها ببراعة الأسلوب ، والغوص وراء أسرار القرآن ، تأسف لهذا القرار ، وتود مخلصة أن ترجع إدارة الأزهر عنه ، لتفسح المجال أمام هذا العالم الفاضل .

ولاشك أن فضيلة الأستاذ الأكبر سيشمل الأستاذ الشرباصى بعطفه ، وسيحوطه بتقديره ، فهو أول من يعنى بتشجيع العاملين وتكريم النابغين » .

***

٧ — ونشرت مجلة « الدعوة » الغراء وهى مجلة الإخوان المسلمين فى عددها الصادر بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥١ تحت عنوان « نقل ؟! » الكلمة التالية :

« فوجئنا بقرار من إدارة الأزهر يقضى بنقل الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بمعهد القاهرة إلى معهد سوهاج ! ونحن لا ندرى لهذا النقل سببا ، فليس للشيخ الشرباصى لون حزبى خاص ، وإن كان له نشاط دينى فى محيط الهيئات الإسلامية جميعا ، فهل هذه جريمة يعاقب عليها عالم بنقله إلى أقصى الصعيد ؟ وهل هذه هى السياسة الجديدة للأزهر فى عهده الجديد ؟

نرجو أن تراجع إدارة الأزهر نفسها فى هذا القرار الغريب » .

***

٨ — وبتاريخ ٥ أكتوبر نشرت مجلة « منبر الشرق » الغراء الكلمة التالية تحت عنوان : « همسة إلى الأستاذ الأكبر » ونصها :

« قرأت فى بعض الصحف أن قراراً صدر بنقل فضيلة الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بمعهد القاهرة إلى معهد سوهاج ، وذلك بعد تعيين الأستاذ الأكبر الجديد شيخاً للأزهر بأيام . وليس فى الخبر شىء يستدعى الغرابة أو الدهشة ، لو أن الشيخ الشرباصى من الحزبيين الذين يتعصبون لحزب داخل الأزهر أو خارجه ، أو لو أنه من المدرسين الكسالى الذين لا يؤدون واجبهم على الوجه الأكمل ، أو لو أنه من المدرسين

المجهولين بين ضوضاء القاهرة ، أو من الذين يتناولون مرتبهم فى أول كل شهر ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا . . . وكفى .

ولكن الذى نعرفه أن الشيخ الشرباصى بعيد عن الحزبية وأوضارها ، يعيش عيشة مستقلة ، ويحصر نشاطه فى خدمة الإسلام والأدب والمجتمع ، ولا يتحيز لأى زعيم ، كبيرا كان أو صغيراً ، وهو مدرس مخلص كل الإخلاص فى عمله ، لأن له ضميراً حياً ونفساً كبيرة ، يعرف هذا جيداً طلبته وزملاؤه داخل الأزهر الشريف ، وهو من رجال الأزهر القلائل الذين يفخر بهم ، فنشاطه الخارجى ملموس ، وله تقديره فى الأوساط الإسلامية والاجتماعية والأدبية .

فإذن لا ندرى أى معنى لأن ينقل من القاهرة ، إلا إذا كان الدس الرخيص بدأ يحتل مكانه بالأزهر فى عهد الشيخ الأكبر الجديد ، ومظنة السوء بدأت تهيمن على شؤونه ، وهو ما لا ننتظره ، لأننا ننتظر أن تكون بداية عهد الشيخ الجديد نهاية للدسائس الصغيرة ، والمكائد الدنيئة ، والمهازل الحقيرة التى يمثلها من لا نفوس ولا ضمائر لهم . إن الشيخ الشرباصى يؤدى رسالة فى داخل الأزهر ، ورسالة أخرى بين ربوع القاهرة ، فهو يغذى الجماعات الإسلامية جميعها بمحاضراته العميقة الأثر ، ويمد المجلات الإسلامية بمقالاته المتواصلة ، وفوق هذا فهو نشيط نشاطا جليل القدر نعتز به ونفخر .

وبعد ، فهل نطمع فى أن تكون هذه الكلمة الوجيزة بمثابة رجاء لدى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الجديد ، فيعمل على إلغاء قرار نقل الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى ، لنكون له مدينين بالفضل ؟ وها نحن أولاء منتظرون » . م . ع . س

« منبر الشرق » — نضم صوتنا إلى صوت الكاتب الفاضل وإلى صوت الهيئات الإسلامية التى تقدمت برجائها إلى فضيلة شيخ الأزهر . ونطمع فى سماعه من فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش ، لا سيما لما نعرفه من ظروف الأستاذ الشرباصى الخاصة التى تدعو بإلحاح إلى إجابة هذا الرجاء ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .

ع . غ

* * *

من يدرى لعل الله سبحانه قد ساق هذه السحابة الخفيفة التى سارعت بالانقشاع ، ليقول هؤلاء الأماجد ما قالوا ، فيكون خير تحية تقدم هذا الكتاب ، ولئن تأخر موضعها فإن مقامها فى الرأس وفى الصدور . . .

# فهرست


الموضـــوع — الصفحة

مقدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣

الثقافة العامة فى كتاب الله ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٤

ماهو القرآن ص ٤ — القرآن فى خطر . معنى الثقافة ٥ — شهادات للقرآن ٦ — القرآن يفرض الثقافة ٨ — أركان الثقافة ١٠ — العلوم فى القرآن ١٢ — الأسلوب الرفيع وغريب اللغة ١٣ — أدب الخطاب ١٤ — الأمثال فى القرآن ١٥ — القرآن أساس التعليم ١٦ ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

الإسلام والشيوعية : ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٧

تحديد سريع ١٧ — الشيوعية والإسلام ١٨ — خطة الإسلام ١٩ — الإسلام والبطالة ٢١ — الإسلام والاحتكار والتأمين والربا ٢٣ — الإسلام والترف ٢٤ — الزكاة فى الإسلام ٢٦ — الشيوعية ٢٧ — لمحة تاريخية ٢٧ — مبادىء الشيوعية الأولى ٢٨ — أخطاء أخرى ٣٠ — من يتولى الأمور ٣١ — الإرث بين الشيوعية والإسلام ٣٢ — الرجل والمرأة ٣٢ — طريقة الدعوة ٣٣ — تبلبل الشيوعية ٣٤ — الربا بين الإسلام والشيوعية ٣٤ — خوف منحرف ٣٥ — مظنة الخوف ٣٦ — وأخيراً ٣٦ ... ... ... ... ... ... ... ...

الإسلام وتحديد النسل : ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٧

رأى الدين يجب أن يكون أولا ٣٧ — المراد بتحديد النسل ٣٧ — أصول يرعاها الإسلام ٣٨ — سند لأنصار التحديد ٣٩ — حجة لمعارضى التحديد ٣٩ — وسائل التحديد الهامة : العزوبة ٤٠ — العزل ٤١ — رأى الغزالى وابن القيم ٤٣ — الإجهاض ٤٦ — الوأد ٤٧ — هل يحتاج الإصلاح إلى التحديد ٤٧ — وكيف السبيل إلى التحديد ٥١ — خلاصة البحث ٥٢ ... ... ... ... ...

فى صحبة المكفوفين ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٤

المكفوفون فى الحياة ٥٤ — السخرية بالأعمى ٥٦ — المكفوفون فى التاريخ ٥٩ — كف البصر ليس نقيصة ٦١ — حديث القرآن عن العمى ٦٤ — قد يسبق الأعمى سواه ٦٧ — ذكاء العميان ٦٩ — من سمات المكفوفين ٧١ — نوادر المكفوفين ٧٥ — جريمة سمل العيون ٧٦ — طريقة برايل ٧٨ — المكفوفون فى الأزهر ٧٩ — المكفوفون فى مصر ٨١ ... ... ...

لمحة عن جمال الدين الأفغانى ... ... ... ... ... ... ... ٨٤

ذكرياتى عن التدخين ... ... ... ... ... ... ... ... ١٠٠

الربيع فى القرآن الكريم ... ... ... ... ... ... ... ... ١١٠

مذهب الشيخ محمد عبده فى الإصلاح ... ... ... ... ... ١٢٠

نجدة إلهية ؛ فتح باب الاجتهاد ١٢٠ — طاعة وعدالة ؛ اللغة العربية ١٢١ — التربية والتعليم ١٢٢ — التكتل لمواجهة الأعداء ؛ محاربة الخرافات ١٢٣ — ورثة الأنبياء ؛ إصلاح الأزهر ١٢٤ — يسر الإسلام ١٢٥ ... ... ... ...

الأخلاق فى المسيحية والإسلام ... ... ... ... ... ... ١٢٨

سبب البحث ١٢٨ — الأخلاق فى القرآن ١٢٩ — الأخلاق فى المسيحية ١٣٢ — الرياء والنفاق ١٣٤ — التسامح والعفو ١٣٥ — كنز الذهب والفضة ؛ مظاهر اتفاق أخرى ١٣٦ — لين وقوة ؛ الخطايا المميتة والكبائر ١٤٢ — تحليل المعانى الأخلاقية ١٤٣ — محاولة تقريب ١٤٥ — بعض الفروق ١٤٧ — ثمرة هذا البحث ١٥٠

تحية الكتاب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٣

الفهرس ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٩

DATE DUE

JAFET LIB.
19 JUL 1976

JAFET LIB.
22 FEB 1994

297.04:S53mA:c.1
الشرباصي، احمد
محاضرات الثلاثاء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01035850

297.04:S53mA

الشرباصي

محاضرات الثلاثاء .

Borrower's

297.04
S53mA

297.04
S53mA
C.1